عبدالعزيز بن علي الزمزمي

(٩٠٠-٩٧٦هـ)

سيرته وشعره

د .صالح بن عبدالعزيز المحمود

كلية اللغة العربية- جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض

المقدمة

بسم الله، والحمدلله الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على نبي الهدى والدين، المبعوث رحمةً للعالمين؛ نبينا محـــمد، عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وبعد:

فإنّ ذاكرة الإبداع العربي تختزن الكثير من الأسماء والمنجزات الأدبية التي تستحق إضاءتها، والوقوف عندها، وإن الإنصاف والموضوعية العلمية يقتضيان دراسة المنجز الإبداعي العربي في عصوره المختلفة كلها، سواء أكانت عصور قوة وازدهار، أم كانت عصور فتور وضعف وتراجع في القيمة الفنية؛ لأن هذه العصور أو تلك، تمثل منظومة كاملة وممتدة لتاريخنا الأدبي والإبداعي، والإسهام في إضاءة المظلم من فتراته، المنسيّ في ذاكرته، يُعَدّ عملاً نبيلاً ومفيداً يستحق عناية الباحثين والنقاد.

ولقد حفلت القرون التي تلت سقوط الدولة العباسية ابتداء من النصف الثاني من القرن السابع الهجري بمنجزات إبداعية مختلفة ومتنوعة، واحتفظتْ ذاكرة الإبداع العربي ببعض الأسماء، ونسيتْ بعضاً، ومن الأسماء التي ران عليها النسيان الشاعر العالم **عبدالعزيز بن علي الزمزمي**، شاعر مكة ومفتيها في زمنه، وقد عاش حياته كلها في القرن العاشر الهجري، منذ مبتدئه حتى انصرام ثلاثة أرباعه، وترك لنا إرثاً شعرياً ليس بالقليل، ضاع بعضه، وبقي بعضه مما احتواه ديوانه المخطوط الذي تصدى له الباحث الفسطيني حسين الصيّاد؛ فحقّقه، وأخرجتْه دارُ الكتب والوثائق القومية في القاهرة سنة ٢٠١٣م، ومما احتفظت به بعض الكتب التي ترجمت للزمزمي.

وقد حاولتُ في هذا البحث أن أعرض لحياة الشاعر عبدالعزيز الزمزمي وبيئته التي عاش فيها، وأن أخصّ شعره بمزيد عناية وفحص ودرس ونقد، منطلقاً من كونه يمثل وثيقة أدبية وسياسية واجتماعية لمكة المكرمة في القرن العاشر الهجري بوجه أخصّ؛ حيث ولد الشاعر ومات.

ويمكن أن أجمل **أسباب اختيار موضوع** هذا البحث في الآتي :

١- الكشف عن مستوى الشعر في مكة في القرن العاشر الهجري، والرغبة في إضاءة هذه الفترة المظلمة نقدياً وبحثياً .

٢- كون الشاعر عبدالعزيز الزمزمي من الشعراء المغمورين والمنسيين الذين لم يحظوا بدراسة تكشف عن سيرته وذاكرته الإبداعية .

٣- أن هذه المرحلة من تاريخنا الأدبي لم تُنصف بحثياً بالشكل المطلوب، ولم ينل مبدعوها حقهم الكامل من الدراسة والبحث .

وضبطاً **لحدود البحث** فقد حاولت دراسة شعر الزمزمي دراسةً تتناول أغراض الشعر وموضوعاته، وتتناول قيمه الفنية من خلال بناء القصيدة عنده، ومن خلال لغته وصوره وإيقاعه، وسبقت هذا كله بدراسة تضيء سيرة الشاعر الإنسانية، وحياته في مكة، وبيئته العلمية، كما مهّدت للبحث بإضاءات موجزة للحالة السياسية في مكة إبان القرن العاشر الهجري.

وقد اعتمد البحث على المنهج الإنشائي في دراسة شعر الزمزمي؛ متناولاً قيمه الجمالية، واعتمدت في دراسة حياة الشاعر وعصره وبيئته على المصادر التاريخية التي ترجمت له، والمصادر التي أضاءت مكة في القرن العاشر الهجري، أو تلك التي ترجمت لأعلام ذلك القرن بشكل عام، وأهم تلك المصادر كتاب **النور السافر عن أخبار القرن العاشر** لعبدالقادر العيدروس، وكتاب **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** لابن العماد الحنبلي، وكتاب **السنا الباهر بتكميل النور السافر** لمحمد بن أبي بكر الشلّي، وكتاب **الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة** لنجم الدين الغزي، وكتاب **المختصر من نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة** لعبدالله أبي الخير، وغيرها من الكتب.

إنّ هذا البحث يأتي محاولة متواضعة لخدمة تاريخنا الأدبي ومنجزنا الإبداعي في فترة لم تنل حقها الوافي من العناية والدرس والاهتمام، وما عبدالعزيز الزمزمي سوى أنموذج واحد لعدد كبير من الشعراء المنسيين، والخليقين بالدراسة وتسليط الضوء على منجزهم الإبداعي، مهما كان هذا المنجز في قيمته الفنية؛ ذلك أنه يبقى جزءاً من ذاكرتنا الإبداعية العربية.

أسأل الله تعالى أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يكون لبنةً في خدمة تراثنا الأدبي والإبداعي، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

- **التمهيد:**
- **لمحة عن الحالة السياسية في مكة إبّان القرن العاشر الهجري:**

ولد عبدالعزيز الزمزمي في مكة المكرمة مطلع القرن العاشر الهجري، وعاش فيها جلّ عمره، وفيها مات، ومن أجل أن نستطيع قراءة حياة هذا الشاعر وشعره عبر سياق علمي صحيح، فإنه يجدر بي أن أعرض لبيئته التي عاش فيها زماناً ومكاناً، مركّزاً على الحالة السياسية في مكة المكرمة إبان القرن العاشر الهجري، وإن إضاءة مثل هذه السياقات المصاحبة يعدّ أمراً غاية في الأهمية؛ لفهم شخصية الزمزمي وظروف حياته وشعره.

ومن البدهيات عبر التاريخ أن استقرار الحالة السياسية هو المسؤول بالمقام الأول عن استقرار المجتمعات، وأمن الناس، ورخاء حياتهم، ولم تكن مكة المكرمة مستقرة على المستوى السياسي إبان القرن التاسع الهجري، واستمر الأمر كذلك في الربع الأول من القرن العاشر الهجري؛ إذ مرّت مكة باضطراب سياسي ظاهر، كان سببه حالة من الصراع الداخلي بين أُسَرِ الأشراف الحسنيين الحاكمة في مكة إبان تلك الحقبة؛ إذ كثرت بينهم المنازعات والخلافات، ووقعت بينهم حروب كثيرة، تقاتل فيها الأخ مع أخيه، والولد مع أبيه[1].

كما أن المماليك حصلوا على امتياز سياسي كبير في مكة في القرن التاسع الهجري حين لجأ إليهم أميرها الشريف حسن بن عجلان، وطلب معونتهم؛ لعجزه عن الانتصار على خصومه، فدعمه المماليك مقابل تقوية نفوذهم في مكة وفي الحجاز عموماً، حتى إن الشريف حسن قَبِلَ أن يسمى نائباً للسلطنة المملوكية في الحجاز، وفي هذا استنقاص ظاهر لقدره، ولمبدأ استقلال إمارته، وهو المبدأ الذي كان يحرص عليه أمراء مكة آنذاك[2].

ومع نهايات القرن التاسع الهجري بدا أن نفوذ المماليك على مكة والحجاز قد بلغ أوجه، وأصبح أقرب إلى النفوذ المباشر، بخاصة في عهد الشريف محمد بن بركات الذي أصبح أشبه باليد التي تنفذ إرادة المماليك في مكة مقابل حصوله على دعم منقطع النظير[٣]، وأهم مظاهر ذلك الدعم تمثلت في موافقة السلطان المملوكي على طلب الشريف محمد أن يكون ابنه -واسمه بركات- شريكاً له في الحكم بتداء من سنة ٨٧٨هـ، تمهيداً لتوريثه، كما أصدر السلطان المملوكي مرسوماً في سنة ٨٨٨هـ يقضي بتولية الشريف محمد بن بركات حكم بلاد الحجاز جميعها، وليس حكم مكة فقط[٤].

وفي مطلع القرن العاشر الهجري توفي أمير مكة وبلاد الحجاز الشريف محمد بن بركات سنة ٩٠٣هـ، وتولى بعده ابنه الشريف بركات بن محمد، ومعه ابتدأت قصة جديدة للفوضى وزعزعة الأمن والاستقرار في مكة، كان سببه الخلاف حول السلطة بين بركات وأخيه هزاع[٥]، إذ وقعت بين الأخوين مواجهة دامية سقط فيها عدد كبير من القتلى، واضطرب الأمن في مكة حينذاك، وعاث فيها أهل الفساد، وضجّ الناس، وتأذى الحجاج، حتى كان الصلح بين الأخوين[٦].

واستمرت الاضطرابات تطلّ برأسها على مكة، فلم تنعم في السنوات العشر الأولى من القرن العاشر الهجري بالأمن والاستقرار، وظلت الفتن والحروب محتدمة بين أبناء الشريف محمد بن بركات، حتى حانت سنة ٩٠٩هـ، وفيها عاد حكم الحجاز مرة أخرى إلى الشريف بركات بن محمد المدعوم من المماليك، إثر هروب أخيه حميضة من مكة، فتولى إمرة الحجاز بتفويض من السلطان المملوكي، ووضع أخاه قايتباي في ولاية مكة، وأشرك معه ابنه علياً، ثم محمداً، وفي تلك المرحلة هدأت الأمور، وأمن الناس، واستقرت الأوضاع[٧].

ويجدر بي أن أشير هنا إلى أن الدولة المملوكية أسهمت بجزء ليس بالقليل من المسؤولية في عدم استقرار الأمور في مكة في بدايات القرن العاشر الهجري وما قبله؛ ذلك أنها لم يكن يعنيها أن تعالج ذلك التنافس المحموم بين الأشراف الحسنيين

على إمرة مكة، وإنما كانت تريد أن يظلّ الدعاء للسلطان المملوكي مِنْ على منبر المسجد الحرام؛ لتكتسب الدولة شرعية وتعاطفاً من الناس[٨].

وفي سنة ٩٢٣هـ حدث تحوّل سياسي كبير في العالم الإسلامي، حين آلت الأمور إلى العثمانيين الذين أطاحوا بالمماليك، وأصبحت مكة وسائر بلاد الحجاز ضمن الأقاليم التابعة للدولة العثمانية آنذاك، وتقول الروايات إن السلطان العثماني سليم خان قد أزمع تسيير جيش كبير إلى الحجاز؛ ليخضعه إلى السلطنة العثمانية بالقوة، لكن بعض مستشاريه، وبعض تجار الحجاز الذين كانوا يفدون إليه نصحوه بمكاتبة الشريف بركات؛ لينضم بإمارته تحت سلطة العثمانيين سلمياً، فلم يتردد الشريف بالموافقة، ولم يكن له قِبَلٌ بالرفض، ولو رفض لأُخضع بالقوة، فضلاً عن حاجته إلى المساعدات التي اعتاد العثمانيون أن يرسلوها إلى مكة حتى قبل قيام سلطتهم، وأرسل الشريف بركات ابنه أبا نمي إلى مصر في منتصف سنة ٩٢٣ه؛ ليؤكد ولاءه للدولة الجديدة، ولسلطانها سليم خان، وهكذا دخلت مكة المكرمة تحت إمرة العثمانيين، وأقرّوا إمارة الحجاز للشريف بركات[٩].

وأشير إلى أن تحوّل موازين القوى في العالم الإسلامي لصالح العثمانين منذ سنة ٩٢٣ه لم يغيّر في حكم مكة شيئاً؛ إذ بقي الأشراف الحسنيون في حكمها، فلم يشأ العثمانيون أن يفتحوا على أنفسهم جبهات جديدة، وهم يعلمون أن لمكة قدسية كبيرة في نفوس المسلمين، وليس من صالحهم التدخل السافر في شؤونها، كما كانوا حريصين على أن يبقى في مكة الحاكم الأقوى الذي يسيطر على الأمور؛ كي لا ينشغلوا بها، ولذلك كانوا يؤيديون حكم الأشراف الحسنيين، ويدعمونه، فبقي الشريف بركات بن محمد أميراً على مكة وبلاد الحجاز مُؤيَّداً من السلطان العثماني سليم خان، واستمر تأييده من ابنه السلطان سليمان بن سليم خان، حتى توفي الشريف بركات سنة ٩٣١هـ، فخلفه ابنه أبو نمي محمد بن بركات الذي حظي بتأييد جديد من السلطان سليمان خان، وبقي أميراً على مكة والحجاز حتى ضعفت قوته مع تطاول عمره؛ فالتمس من السطان العثماني آنذاك

أن يولي مكانه ابنه الحسن، فأيّده وأقرّه، وبقي الحسن أميراً على مكة وبلاد الحجاز إلى انصرام القرن العاشر، وبدايات القرن الحادي عشر، وهكذا استمر الحسنيون في حكم مكة طيلة هذا القرن، واكتفى العثمانيون بالدعاء لهم من على المنابر، والتواقيع بالموافقة على الأمير المنصّب[١٠].

وأشير هنا إلى أن مكة نعمت بمزيد هدوء واستقرار وأمن منذ مبتدأ الثلث الثاني من القرن العاشر الهجري؛ ذلك أن الشريف أبا نمي محمد بن بركات كان حاكماً قوياً وصارماً ومهاب الجانب، وقد عالج مشكلات ولايته بحزم وقوة، كما كان عادلاً ومتسامحاً، ولذلك أحبه أهل مكة، وخافه كثير من الأعراب، واحترمه الحجاج والمجاورون، وقدّر مترلته السطان العثماني[١١]، وكتب فيه شعراء مكة مدائح كثيرة، وكان الشاعر عبدالعزيز الزمزمي ممن مدحه وأشاد بأفعاله، وذكر فروسيته وشدة بأسه.

ومن يتأمل الوضع السياسي والأمني في مكة المكرمة إبان القرن العاشر الهجري يجد أنها استهلّت القرن بصراع دموي عنيف على السلطة جرى بين الإخوة الحسنيين أنفسهم، ولم يحرك المماليك –وهم القوة العظمى آنذاك- ساكناً في سبيل إيقاف تلك الصراعات، وكأن الأمر لم يكن يعنيهم، بيد أن الأمور تغيرت واتجهت إلى الهدوء والاستقرار مع جريان القرن العاشر إلى ثلثه الثاني، وبالتحديد حين تولى الشريف أبو نمي بن بركات الحكم في الحجاز؛ إذ استطاع أن يضبط الأوضاع، وينهي النزاعات، بفضل ما أوتي من شخصية قوية، وفكر نافذ، وخبرة ودراية بإدارة البلاد، مع مزيد عزيمة وحكمة وشجاعة، وقد ورث ذلك كله عنه ابنه الشريف الحسن الذي انصرم القرن العاشر الهجري وهو أمير على الحجاز[١٢].

أما العثمانيون فقد حرصوا –وهم في بداية حكمهم للعالم الإسلامي- ألا يتوغلوا كثيراً في السياسة الداخلية لمكة وبقية بلاد الحجاز، ورأوا أن من الخير لسياستهم أن يبقوا بعيدين عن شؤون الولاة الداخلية، واكتفوا بأن يعلن أولئك الولاة ولاءهم وطاعتهم للسلطان العثماني.

المبحث الأول/ عبدالعزيز الزمزمي، حياته وسيرته وبيئته العلمية والأدبية:

أولاً/ عبدالعزيز الزمزمي، الحياة والسيرة:

هو عزّ الدين عبدالعزيز بن علي بن عبدالعزيز بن عبدالسلام بن موسى بن أبي بكر بن أكبر علي بن أحمد بن علي بن محمد البيضاوي الزمزمي، شيرازي الأصل، مكي المولد والنشأة والحياة، شافعي المذهب، ولقبت عائلته بالزمزمي نسبة لبئر زمزم؛ ذلك أن أحد أجداده –وهو علي بن محمد– جاء إلى مكة في سنة ٧٣٠هـ، وباشر في خدمة بئر زمزم، وتزوج في مكة وأنجب، وأصبح تعهد البئر ورعايته في عقبه، ولذلك عرف بالزمزمي، واستمر هذا اللقب في أولاده من بعده[١٣].

ولد عبدالعزيز الزمزمي في مكة مطلع القرن العاشر الهجري، وكان مولده في شهر صفر سنة ٩٠٠هـ، وفي مكة نشأ وتربى، وفي بيت الله الحرام تعلم، وأخذ العلم عن عدد من العلماء الكبار في زمنه، كشيخ الحديث علي بن حسام المعروف بالمتقي، والشيخ محمد بن أبي الحسن البكري، كما زامل العالم الشهير شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمي، ونصّ على هذه الزمالة الشلّي صاحبُ السنا الباهر حين قال في ترجمته للزمزمي: "... وشارك الشيخ أحمد بن حجر في أكثر مشايخه، وكانا رضيعي لبان، وفرسي رهان"[١٤].

ولم يكتفِ الزمزمي بأخذ العلم من علماء مكة في بيت الله الحرام، بل ارتحل في طلبه، فقصد مصر سنة ٩٢٤هـ، وأخذ العلم من كبار العلماء هناك، وقال عن هذه الرحلة: "أول رحلة ارتحلتها إلى مصر –حرسها الله تعالى– لطلب العلم في عام أربعة وعشرين وتسعمائة، فأقمت بها من أحد الجمادين إلى رجب عام ستة وعشرين وتسعمائة"[١٥]، كما زار اليمن، وبلاد الشام، وبلاد الروم، ووثّق ذلك في شعره[١٦].

برز اسم عبدالعزيز الزمزمي وذاع صيته في مكة منذ كان شاباً، فقد عرف بالعلم والفضل، وكان من أجلّاء عصره، وتبحّر في علوم الفقه والحديث، وأصبحت له حلقة علمية خاصة في المسجد الحرام، يفد إليها طلاب العلم، كما تولى التدريس في المدرسة السليمانية في مكة، ثم أصبح رئيس علمائها[١٧].

شهد له معاصروه بالفضل والعلم، كما أثنى عليه مؤلفو كتب التراجم التي اختصت بأعلام مكة في القرن العاشر الهجري، فقال عنه العيدروس في النور السافر: "وكان من أعيان علماء مكة وفضلائها وأكابرها ورؤسائها ... وبالجملة فإنه كان أوحد الفضلاء، وبقية العلماء، حسن الشعر والإنشاء"[١٨]، وقال عنه ابن العماد في شذرات الذهب: "وكان من أجلاء عصره، رحمه الله تعالى"[١٩]، وقال عنه الشلّي في السنا الباهر: "إمام الحرمين، ومفتي الفريقين، علم العلماء الأعلام، المستعلي بهمته على كل هام ... رزق من العلوم الشرعية والأدبية أوفر حظ ونصيب، وزارد فيها على كل أريب أديب"[٢٠]، كما قال عنه أبو الخير في مختصر نشر النور والزهر: " ولد بمكة ونشأ بها، وأخذ العلم عن أكابر المحققين، وجدّ واجتهد، حتى صار أحد الفضلاء المتفننين المدرسين، واشتهر صيته، واتفق الناس على انفراده في مجموع كماله، وفاق الأقران، وسما على الأخدان، وله في الأدب يد طولى"[٢١].

وهذه الشهادات —وإن كان فيها شيء من المبالغة في الأوصاف- إلا أنها دليل على منزلة الزمزمي في عصره، وشاهد على عميق علمه وفقهه، وتأكيد على أنه كان معدوداً من العلماء الذين يشار إليهم بالبنان في مكة إبان القرن العاشر الهجري، ويمكن القول إن الزمزمي كان -قبل أي وصف- عالماً اشتهر بعميق علمه في الفقه والحديث والتفسير، ثم إنه كان —بعد ذلك- أديباً شاعراً، وقد تتلمذ عليه في العلم الشرعي عدد كبير من أهل العلم في ذلك الزمن، وعلى رأس هؤلاء ابنه محمد بن عبدالعزيز الزمزمي، الذي اشتهر بعلمه وفضله، وقال عنه صاحب مختصر نشر النور والزهر: "العالم العلّامة الشهير، الهمام الفهّامة"[٢٢]، ومنهم الشيخ عبدالرحمن بن علي باغوث شيخ المدينة وفقيهها، وقد ذكر صاحب السنا الباهر أنه أخذ الإجازة عن شيخ الإسلام عبدالعزيز الزمزمي[٢٣]، وكذلك الشيخ زين الدين عطية بن علي بن حسن السلمي وكان موسوعة علم في عصره[٢٤]، والشيخ إبراهيم بن أبي اليمن بن محمد الطبري الذي أجاز الزمزمي

محفوظاته[٢٥]، وغيرهم من العلماء الذين تتلمذوا على الزمزمي، وأخذوا عنه علوم الفقه والحديث والتفسير، ونالوا منه إجازات متنوعة.

وللزمزمي مجموعة من المؤلفات في الفقه والحديث والتفسير، إضافة إلى الأدب، وذكر الغزي في الكواكب السائرة اثنين من مؤلفاته، هما: فيض الجود على حديث (شيبتني هود) والفتح المبين في مديح سيد المرسلين[٢٦]، وذكر له غيره كتباً أخرى عديدة، كمنظومة التفسير، وفتح الرداء في نشر العلم والاهتداء، والفتاوى الزمزمية، وشرح على مقامات الحريري، وشرح قصيدة (بانت سعاد)، وتنبيه ذوي الهمم على مآخذ أبي الطيب من الشعر والحكم[٢٧].

ويلحظ الفاحص في سيرة الزمزمي العلمية غزارة منجزاته، وتنوع مؤلفاته بين الحديث والفقه والتفسير والأدب، فقد كان عالماً موسوعياً، متعدد التخصصات، وهذا شأن عدد ليس بالقليل من علماء القرون الأولى، ولعل وجود الزمزمي في المسجد الحرام الذي يغصُّ بالعلماء في كل تخصص قد أسهم في موسوعيته، وتكوين شخصيته العلمية التي أخذت من كل علم بطرف.

وقد كانت للزمزمي منزلة ومكانة عالية بين علماء مكة وبيت الله الحرام، وقد أحبه الناس واحترموه؛ لطيبته وحسن معشره، وعميق علمه، كما أحبه أساتذته الذين تعلم على أيديهم العلوم الشرعية، ومن هؤلاء الشيخ جمال الدين محمد بن أبي الحسن البكري الصديقي[٢٨]، وهو أحد أساتذة الزمزمي، وشيخه في علم الحديث، وقد مدح تلميذه الزمزمي بقصيدة منها:

أنت الذي بصفاتِ الفضلِ أجمعِها ... في بلدةِ الله أولى سائر العلما

فليهنَ مكةَ بل وليهنَ ساكنَها ... وليهنَ أبطحَها والبيتَ والحرما[٢٩]

عاش الزمزمي آخر حياته –وقد جاوز السبعين– بين بيته والبيت والحرام والمدرسة السليمانية، وكان بعض طلاب العلم يفدون إلى مكة؛ ليأخذوا منه ويتتلمذوا عليه، إلى أن توفي –رحمه الله وغفر له– في سنة ٩٧٦هـ، عن ست وسبعين سنة، وكانت وفاته في مكة، ودفن بالمعلاة[٣٠].

وقد أرّخ أحد مريديه وتلامذته –وهو الشيخ عبدالرحمن الخفاجي– عام وفاته بحساب الجمّل بقوله: "بجنان الخلد قد أصبح"، ونظم ذلك التاريخ بقوله:

إن من أجـرى الـدموع علـى عـزّ ديـن الله قـد أفلـح
قـد أتـى تاريخـه ضـبطاً (بجنان الخلـد قـد أصـبح)[٣١]

وقد وهم حاجي خليفة في كشف الظنون حين جعل وفاة عبدالعزيز الزمزمي في سنة ٩٦٣هـ[٣٢]، ووافقه في ذلك البغدادي صاحب هدية العارفين[٣٣]، والصواب أن وفاته كانت –كما قدّمتُ آنفاً– في سنة ٩٧٦ه؛ ذلك أن هذا التاريخ هو ما أثبته معظم من ترجم للزمزمي ضمن أعيان القرن العاشر الهجري[٣٤]، كما أن القطبي في تاريخه قد ذكر أن الزمزمي درّس في المدرسة السليمانية مطلع سنة ٩٧٦ه، أي في سنة وفاته نفسها، كما نقل عنه ذلك صاحب مختصر نشر النور والزهر حين قال: "وذكر القطبي في تاريخه ما نصّه: وفي سادس عشر من محرم من سنة ٩٧٦ه توجه إلى مولانا الشيخ عبدالعزيز الزمزمي تدريس المدرسة السليمانية بخمسين عثمانياً، وكان رئيس علماء مكة يومئذ"[٣٥]، وهذا يؤكد أن الزمزمي شهد بداية سنة ٩٧٦ه حياً، وكان قادراً على التدريس، إلى أن توفي في العام ذاته، رحمه الله وغفر له.

ثانياً– بيئة الزمزمي العلمية والأدبية:

لمكة المكرمة عبر تاريخها الإسلامي الطويل مكانة سامقة في نفوس المسلمين على مرّ العصور؛ لوجود أطهر بقع الأرض فيها، فقد أنعم الله على مكة المكرمة بوجود المسجد الحرام، فباتت مهوى الأفئدة، ومقصد الأرواح المؤمنة، وهو ما منح البيئة المكية خصوصية استثنائية؛ إذ جعلها مركز إشعاع معرفي، ومكاناً خصباً لازدهار العلم والفكر والأدب، وبيئة جاذبة ومساعدة على كثرة العلماء المختصين بالعلم الشرعي، وتحوّل المسجد الحرام فيها إلى جامعة علم، ومنارة معرفة وقّادة؛ ذلك أن عدداً كبيراً من الزائرين والوافدين –على مرّ العصور– كانوا من العلماء البارزين، وطاب لكثير منهم البقاء والمكوث في مكة، مجاورين مسجدها الحرام؛

ليُعَلِّموا ويتعلَّموا، وهذا الأمر أسهم في إثراء الحركة العلمية والفكرية في البيئة المكية على مرّ قرون طويلة، ولهذا تكوّنت وحدة معرفية وثقافية أدت إلى ازدهار الحركة العلمية في الحرم المكي الشريف، كما انتشرت فيه المؤسسات العلمية كالمدارس والكتاتيب وحلقات الدرس.

والمتأمل في الحياة العلمية في مكة إبان القرن العاشر الهجري –حيث ولد عبدالعزيز الزمزمي وعاش– يلحظ استمرار ازدهار الحركة العلمية كما كانت مزدهرة في القرن التاسع؛ ذلك أن سلاطين المماليك اهتموا اهتماماً ظاهراً بالحرمين الشريفين في مكة والمدينة، وأسسوا فيهما المدارس المتعددة؛ كي تكون قبلةً لطلاب العلم، كما أنهم بذلوا الأعطيات والهبات لأهل الحرمين والمدرسين والقضاة[٣٦]، وهذه أمور تسهم في تنشيط حركة العلم والمعرفة في مكة والمدينة، كما أنها تُغري كثيراً من العلماء بالحضور والمجاورة في بيت الله الحرام، وهذا أدّى إلى زيادة ملحوظة في حجم المؤلفات التي نشط العلماء في تأليفها وتقريبها لطلاب العلم.

وتذكر المصادر المكية أن سلاطين المماليك كانوا حريصين على إرسال الصدقات والهبات؛ سواء أكانت طعاماً، كالقمح والحنطة وغيرها، أم كانت نقداً، كالذهب والدراهم، إرسالها إلى مكة؛ لتوزّع على العلماء وطلاب العلم، وعلى الأربطة وغيرها[٣٧]، ولعل هذا يعكس اهتمام السلطان المملوكي بمكة، واستشعاره لقدسية المكان، وحرصه على كسب تعاطف المسلمين، وجدارته بلقب خادم الحرمين الشريفين[٣٨].

وأبرز المظاهر التي أسهمت في تنشيط الحركة العلمية في مكة إبان القرون الهجرية من السابع إلى العاشر الهجري، تمثّـــل في دور العلماء المجاورين الذين يفدون إلى مكة من بقاع الأرض، ويلزمون المسجد الحرام سنوات عديدة تطول وتقصر[٣٩]، يُعلّمون ويَتعلّمون، فاستقروا في مكة، واندمجوا في مجتمعها، وصاروا جزءاً من نسيجها الاجتماعي والثقافي[٤٠].

ولقد نشطت حركة المجاورة في الحرم الشريف إبان العصرين المملوكي والعثماني، وأكثرُ المجاورين قدموا من مصر وبلاد الشام؛ لقربهما من الحجاز، وساعد على نشاط حركة المجاورة ما قام به بعض سلاطين المماليك والعثمانيين من إرسال الصدقات السلطانية والهبات من الحبوب وغيرها التي ترسل للحرم المكي الشريف، ولقد كان للمجاورين نصيبهم من هذه ا لأرزاق؛ مما جعلهم يتفرغون لمهنة العلم بعد أن اطمأنوا على حياتهم المعيشية[٤١]، فكان لهم أثر علمي كبير، تمثل في التأليف والتدريس والإجازة، كما كان منهم شعراء ينشدون أشعارهم في المجالس والحلقات العلمية، وقد أفاد منهم الزمزمي إفادة كبيرة، وتتلمذ على كثير منهم.

وقد كانت حلقات العلم في المسجد الحرام عامرةً بالعلماء وطلاب العلم، حيث ينشط التدريس والتأليف وتداول الكتب وتدارسها، و لم يكن الأمر مقصوراً على العلوم الشرعية فقط، بل تجاوزها إلى العلوم اللغوية والأدب، فوجد الأدب له نصيباً جيداً من الاهتمام في البيئة المكية، و"لقد كان إنشاد الشعر أمراً مألوفاً في حلقات العلم بالمسجد الحرام، كما أن تدوينه ونقده والتعليق عليه كان ضمن دروس الحلقات العلمية في المسجد الحرام"[٤٢].

على أن ازدهار الحركة العلمية لم يكن مقصوراً في مكة على حلقات العلم في الحرم المكي الشريف، بل كثرت الحلقات العلمية والدروس المتنوعة في كثير من الفنون في المساجد الأخرى في مكة، وفي المدارس والأربطة الزوايا والكتاتيب والمكتبات الملحقة بالأربطة والمجالس الخاصة، وكل هذه كان لها أثر بالغ في إثراء الحركة العلمية في مكة إبان القرن العاشر؛ لأنها أسهمت في تكوين بيئة ملائمة لاكتساب العلم، والاختلاط بالعلماء، وتأليف الكتب، وتدارسها، وقد كان الزمزمي –في آخر حياته– مدرساً في المدرسة السليمانية في مكة، كما كان من كبار علماء مكة في ذلك الوقت.

وثمة محفّز آخر أسهم إسهاماً واضحاً في تنشيط حركة العلم والفكر في مكة إبّان هذه المرحلة، وهو التأليف والتصنيف العلمي؛ فقد كثرت المؤلفات، ونشطت حركة التأليف في مكة بشكل لافت، فألّف العلماء المكّيّون في الفقه ومذاهبه، وفي الحديث، والتفسير، والقراءات، كما ألّفوا في اللغة العربية وعلومها وآدابها، كما كتبوا في التاريخ والسير والتراجم، وغير ذلك من فروع العلم والمعرفة، وكانوا يتسابقون على الكتابة والتأليف، وكان اهتمامهم منصباً على توثيق التاريخ المكي في تلك الفترة، والترجمة للأعلام الذين عاشوا فيها، وارتبطت مكة في القرن العاشر بأسماء مؤلفين بارعين من أمثال عزّ الدين عبدالعزيز بن عمر بن فهد صاحب بلوغ القرى وغاية المرام، وعبدالكريم القطبي صاحب إعلام العلماء الأعلام، ومحمد النهروالي صاحب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، وعلي بن عبدالقادر الطبري صاحب الأرج المسكي في التاريخ المكي، وغيرهم[٤٣].

ولم يغب الشعر –كما قدّمتُ سابقاً– عن المشهد العلمي والثقافي في مكة إبان القرن العاشر الهجري، بل كان له حضور بارز وغنيّ، ولعل أكثر الأمور التي أسهمت في ذلك الحضور اهتمامُ الأمراء الأشراف به؛ إذ كان بعضهم شعراء متذوقين للشعر الجيد، كما كان أكثرهم يحب الشعر، ويحفل به، ويعطي الشعراءَ العطايا والمكافآت، وكانت مجالسُهم مجالسَ علمٍ وأدب وشعر، كالشريف حسن بن عجلان الذي عُرف بتقدير الشعراء وتحفيزهم، والشريف أبي نمي محمد بن بركات الذي كان بصيراً بالشعر، عالماً به، وكذلك كان ابنه الحسن الذي مجّد الشعراءُ انتصاراته الحربية، ونالوا عظيم عطاياه[٤٤].

وملخص القول في الحالة العلمية والأدبية في مكة خلال القرن العاشر الهجري أنها تطورت ونشطت مع كثرة العلماء والمجاورين في المسجد الحرام، كما نشط الأدب مع وجود عدد من العلماء الشعراء، ومع الدعم والتشجيع الذي لقيه الشعراء من الأشراف أمراء مكة، وارتبط الأمر برمّته بشكل وثيق بحالة الهدوء والأمن التي تلبست مكة المكرمة معظم هذا القرن الهجري، ومع الاستقرار السياسي شهدت مكة نشاطاً وحراكاً علمياً وأدبياً بشكل ملحوظ وبخاصة داخل المسجد الحرام، وفي مجالس الأمراء الحسنيين.

المبحث الثاني/ شعر عبدالعزيز الزمزمي، الديوان والأغراض الشعرية:

عاش عبدالعزيز الزمزمي في القرن العاشر الهجري، وجاء شعره مصطبغاً بروح ذلك العصر، ومنتمياً إليه، ولذا فليس من المستغرب أن يسير شعر الزمزمي في نسق الشعر المكي في القرن العاشر، سواء أكان ذلك في الموضوعات والأغراض والشعرية، أم كان في القيمة الفنية التي بدت غالباً متوسطة، أو متدنية أحياناً، وقد كان شعر الزمزمي إجمالاً وسطاً بين الجيد والرديء، فنراه يحلّق تارة، ويسقط تاراتٍ أخرى، بيد أنه كان من شعراء مكة المعدودين في زمنه؛ ذلك أن مستوى الشعر في تلك المرحلة كان يغلب عليه الضعف، ويندر أن يعثر الباحث على ذاكرة شعرية متميزة في مكة إبان القرن العاشر الهجري، وهو الأمر الذي جعل من تجربة الشاعر عبدالعزيز الزمزمي المتوسطة فنياً تجربةً بارزةً وخليقةً بالبحث والدراسة.

وجلّ شعر الزمزمي محفوظ في ديوانه، وقليل منه لم يرد في الديوان، لكنه موجود في بعض الكتب التي ترجمت لأعلام القرن العاشر الهجري، بيد أن بعض شعره قد ضاع بفعل الزمن، ومهما يكن من شيء، فالنصوص التي احتواها ديوانه تعطي صورة عن مستوى شعره الفني، وعن الأغراض الشعرية التي طرقها، ولكي تكون الصورة أكثر جلاء سأستعرض ديوانه بالوصف والكشف أولاً، ثم أتناول أغراض شعره.

- **ديوان عبدالعزيز الزمزمي:**

ظل ديوان عبدالعزيز الزمزمي مخطوطاً فترة طويلة من الزمن، وكانت له ثلاث نسخ؛ إحداها في مكتبة باريس الوطنية برقم ٣٢٢٨ ، والأخريان في دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، إحداهما برقم ١٥٥٢ ، والثانية برقم ٩٢٧٨[٤٥]، وقد كانت نسخة مكتبة باريس الوطنية أكثر النسخ وضوحاً؛ ذلك أنها كانت مكتوبة بخط جميل وأنيق.

وقد تصدى الباحث الفلسطيني حسين خضر الصياد لهذه النسخ الثلاث، وقام بتحقيق ديوان عبدالعزيز الزمزمي في مجلد واحد، بلغت صفحاته قرابة ثلاثمئة صفحة، بما فيها الكشافات التحليلية، وهو جهد جيد إجمالاً، وقد طبعته دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة سنة ٢٠١٣م.

ويبدو أن عبدالعزيز الزمزمي أشرف بنفسه على جمع ديوانه، وترتيبه، وتهذيبه إبان حياته، ظهر هذا في المقدمة التي وضعها للديوان، كما ظهر في الخاتمة التي ختم ديوانه بها، وقد قُسّم الديوان ثلاثة أقسام رئيسة، قسم في المدائح النبوية، وثانٍ في الإخوانيات والمدائح، وجاء القسم الثالث في شعر الحنين والشوق إلى مكة وبيت الله الحرام بوجه خاص، وإلى بلاد الحجاز بعامة، ومجموع نصوص الديوان بلغ ثمانية وثمانين نصاً، تراوحت بين القصائد الطويلة —وهي الأكثر- والمقطوعات والنتف، "ولا يُعدّ هذا الديوان الشريف هو كلّ ما قاله الإمام عز الدين الزمزميّ من أشعار"[٤٦]، لكنه يحوي معظم شعره، وقد عثرتُ على قصيدتي رثاء للزمزمي ليستا في الديوان، وإنما أوردهما صاحب النور السافر، يرثي في الأولى الوزير آصف خان الكجراتي[٤٧]، وهي طويلة؛ إذ جاءت في سبعة وثمانين بيتاً، ومطلعها:

أيُّ القلـــوب لهـــذا الحـــادث الجَلَـــلِ أطواده الشمّ لم تُنسف ولم تَزلِ[٤٨]

ويرثي في الثانية أحد أصدقائه، وهو الشيخ حامد الجبرتي[٤٩]، وجاءت في واحد وخمسين بيتاً، ومطلعها:

أيُّهـــــا الغافـــــل الغـــــبيُّ تنبـــــه إن بالنوم يقظةَ النـــاس أشـــبه[٥٠]

كما عثرت على قصيدة مديح قالها الزمزمي في الشريف أبي نمي[٥١] في سياق تهنئته بزواج ابنه الشريف أحمد[٥٢]، وقد أوردها العصامي في سمط النجوم العوالي، وهي طويلة؛ إذ بلغت واحداً وسبعين بيتاً، ومطلعها:

ليحـــتسِ الصـــهباءَ مـــن يحتســـي حسبي لَمَى مَرْشَـــفِك الألْعَـــسِ[٥٣]

والديوان –كما أسلفت– مقسم ثلاثة أقسام، مسبوقة بمقدمة نثرية موجزة ذكر فيها الزمزمي الهدف الأساس من المدائح النبوية، والمنهجية التي اتبعها في ترتيب القصائد، فقال: "**وقد آن لي أن أجمع من مدائحي النبوية ما تفرّق، وأوقّع في هذا الرقاع ما الخاطر منذ دهر بتوقيعه معلّق، مبيّضاً –إن شاء الله تعالى– ما كنتُ في الصحائف سوّدته، مؤمّلاً بيُمنه ستر ما يخشى كشفه عند نشر الصحف مما جنيته واقترفته، مرتباً ذلك على حروف المعجم**"[٥٤].

واستمر الزمزمي في مقدمته ذاكراً أقسام ديوانه الأخرى، فنراه يشير إلى القسم الثاني الذي اختص بالمدائح المتنوعة، "... **ثم أتبعه بجملة من مدح العلماء والصالحين والمتقدمين والمتأخرين**"[٥٥] ثم يشير إلى القسم الثالث المختص بالتشوق إلى بيت الله الحرام ومكة وبلاد الحجاز، "... **ثم بما فيه ذكر الكعبة الشريفة ومكة والحرم والحجاز والمشاعر المنيفة**"[٥٦]، ويختم الزمزمي ديوانه بأبيات ينظم فيها عدداً من الأحاديث النبوية؛ ليكون ختاماً مسكاً كما يقول، "**وأختم الجملة بأبيات نظمت فيها أحاديث نبوية متنوعات؛ ليكون المبدأ من مدح النبي عليه الصلاة والسلام، وطيب أحاديثه الشذي مسك الختام، فمبقتضى ذلك صحت المقاسمة، وصار المجموع ثلاثة أبواب وخاتمة**"[٥٧].

وقد اشتمل القسم الأول من الديوان على ثنتين وعشرين مدحة نبوية، منها ثلاثة جاءت على شكل التخميس، وأخريان طويلتان عارض الشاعر عبدالعزيز الزمزمي فيهما همزية البوصيري وميميته الشهيرتين[٥٨]، بيد أنه جعل حركة الروي مفتوحة في كلتيهما[٥٩]، ومطلع الأولى:

أثغـــورٌ منـــها الصـــباح أضـــاءَ أم بروقٌ على النقا تتـــراءى؟[٦٠]

وهي طويلة جداً؛ فقد جاوز عدد أبياتها الثلاثمئة بيت، بينا كانت الثانية أقصر نسبياً –مع طولها– إذ ناهزت المئتي بيت، ومطلعها:

أمـــن تـــذكّرِ جُـــرْمٍ جُرْمُـــه عَظُمـــا أرقتَ في الخدّ دمعاً أم أرقتَ دَما؟[٦١]

واشتمل القسم الثاني على سبع وثلاثين قصيدة، وعدد من المقطوعات والنتف الشعرية، وجلّ النصوص في هذا القسم مدائح في أصدقائه ومشائخه وعلماء آخرين من الأموات والأحياء، كما أن فيها الكثير من التوسل بأصحاب القبور، والوقوف على الأضرحة، والتشفع بأصحابها، وهي أمور كثر جريانها في الشعر إبان القرن العاشر الهجري.

وجاء القسم الثالث مغموراً بشعر الحنين والتشوق إلى مكة وبيت الله الحرام وبلاد الحجاز بعامة، كما أن فيه وصفاً لمكة والبيت الحرام، وفيه عشر قصائد طويلة نسبياً، وعدد من المقطوعات، وفي هذا القسم أجود شعر الزمزمي، وأقربه إلى النضج الفني في رأيي.

أما خاتمة الديوان؛ فقد نظم فيها الزمزمي خمسةً من أحاديث النبي –صلى الله عليه وسلم– في قصيدة من عشرة أبيات، وأربع مقطوعات قصيرة، ثم زاد في نهاية الديوان تخميساً لقصيدة أحد الأولياء[٦٢].

- **الأغراض والموضوعات الشعرية:**

تعددت الأغراض والموضوعات الشعرية التي كتب فيها عبدالعزيز الزمزمي، بيد أن المدائح النبوية قد استأثرت بنصيب وافر من شعره، ثم تجيء الأغراض والموضوعات الأخرى بنسب متفاوتة، وسأحاول في هذا المبحث أن أعرض لأهم أغراضه وموضوعاته بحسب حجم حضورها في شعره:

١-المدائح النبوية:

أبان الزمزمي في كثير من قصائده عن مشاعر الحب للرسول الكريم –صلى الله عليه وسلم– مشيداً بشخصيته العظيمة، وصفاته الحميدة، منطلقاً من كونه المثل الأعلى للمسلمين في جوانب حياتهم كلها، ومعبراً عن شعور حب صادق وعميق يخالط شغاف قلبه، ولا غرو؛ فقد كانت حياة المصطفى –صلى الله عليه

وسلم- ملهمة للمسلمين، متألقة بخصال فطرها الله على الكمال، ليكون -عليه الصلاة والسلام- قدوة للعالمين، ونوراً للحياة.

مَدَحَ الشاعرُ عبدالعزيز الزمزمي النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- بالكثير من القصائد المستقلة، وجُلّها من القصائد الطويلة، وقد عارض مدائح البوصيري المشهورة؛ الهمزية والميمية، كما خمّس الميمية، وتمحورت المعاني في قصائده على ما أكرم الله به نبيه من صفات تفرّد بها عن سائر البشر، ويستوي في ذلك الصفات المعنوية والحسية؛ فقد كانتا موضوعاً خصباً في مدائح الزمزمي، مع التركيز على الأثر الذي تركه نبينا الكريم -صلى الله عليه وسلم- في حياتنا ونفوسنا، ومن ذلك قوله:

أبلجٌ مشرقٌ جميل المحيّا ... لو تجلّى ليلاً جلا الظلماءَ
شيم من بشره النوال كما شيـ ... ـمَ سنا برق ديمة وطفاء
روّت السهل والحزون وأحيت ... بحياها الشعوبَ والأحياء
رحمةٌ عمّت الوجود وغيثٌ ... أذهب القحطَ خصبُه والغلاء[٦٣]

ويحرص الزمزمي في مدائحة النبوية على تعداد مناقب المصطفى -صلى الله عليه وسلم- ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، مع عميق إيمانه بأن الشعر لا يستطيع أن يصف عظمة تلك المناقب، يقول:

كم له من خصائص ومزايا ... ومساعٍ كريمة وعزائم
طبعه الحلم والسماح فلم يُلْـ ... ـفِ له في كليهما من يقاوم
بعدما كُمّلا له أيُّ حلم ... لابن قيس؟ وأي جودٍ لحاتم؟
سيدٌ ساد آدماً وبنيه ... قبل ما علقت عليه التمائم
وهو بالمؤمنين بَرٌّ رؤوفٌ ... وأمانٌ لهم وأرحمُ راحم
كلُّ فضل من فضله مستعارٌ ... وإليه انتهى انتسابُ المكارم[٦٤]

كما حرص عبدالعزيز الزمزمي في مدائحه النبوية على ذكر معجزات النبي –صلى الله عليه وسلم– التي خصّه الله –عزّ وجلّ– بها، ومن ذلك معجزة الإسراء والمعراج التي مكّن الله –تعالى– فيها لنبيه ما لم يمكّن لأحد من الرسل، يقول الزمزمي:

سرى من المسجد المكـيّ منتجعـاً ... ليلاً إلى المسجد الأقصـى علـى
وعاد في ليلةٍ والركب يقطـع هـا ... تيك المسافةَ في شهرين بالعجـل
نالت معاليه لـمّا للسـماء سمـا ... شأواً من العزّ لم يـدرك ولم يُنَـل
لقد رأى الآيـةَ الكـبرى معاينـةً ... ولم يَزغْ بصراً عنـها ولم يُهَـل
أمّ المصلين إذ صـلوا وكـان بمـا ... له تقدّم في ذاك المقـام مَلِـي[٦٥]

ولم تكن معجزة الإسراء والمعراج المعجزة الوحيدة التي تناولها عبدالعزيز الزمزمي في مديحه النبيَّ –صلى الله عليه وسلم– بل تناول معظم معجزاته، ومن ذلك –مثلاً– سلام الصخر والشجر عليه، واستجابتها دعوتَه[٦٦]، وفي هذا يقول الزمزمي:

قفْ وسلّمْ علـى الـذي سـلّمَ ... ـرُ عليه وخلّ عنـك القَسَـاءَ
وأجبْ داعيـاً دعـاكَ إلى مَـنْ ... قد أجابَ الأشجارُ منـه الـدعاءَ
أفضـلُ العـالمين في عـالَمَيْهم ... مُطلقـاً لا اشـتراطَ واسـتثناءَ
خير من قام في المحاريـب يتلـو ... سورة الحمد جهـرةً وخفـاءَ[٦٧]

ومع أن الزمزمي تناول معجزات المصطفى –صلى الله عليه وسلم– فإنه لم يستطع التفاعل معها شعرياً كما ينبغي، ولم يمتزج بها شعورياً، ولم يتعمق في تأملها وتصويرها، بل اكتفى بالتناول العابر الذي بدت عليه التقريرية والمباشرة،كما نطقت بذلك النماذج الماضية.

والمتأمل في المدائح النبوية بعامة، وفي مدائح الزمزمي وغيره من شعراء القرن العاشر يلحظ أن فيها جنوحاً إلى الفكر الصوفي، وابتعاداً عن الطريق السوية

الصحيحة؛ إذ كثر فيها التوسل بجاه النبي –صلى الله عليه وسلم– والاعتقاد أنه يستطيع النفع والضر، كما أن فيها استغاثةً به –عليه السلام– وغلواً في مدحه، وغير ذلك من المظاهر، ومن ذلك أن الزمزمي أصيب بمرض، ثم إنه تشافى منه، ويبدو أن تشافيه توافق مع توسله بالنبي –صلى الله عليه وسلم– بقصيدة طويلة، فظنّ ذلك بسبب التوسل، وقال في مقدمة قصيدته: "... **فلم أجد ملجأ أفزع إليه غير مدحي له –صلى الله عليه وسلم– فشرعت في نظم هذه القصيدة مع شغل البال، فسكن –والله– عني ذلك البرد في الحال، وما هي بأول بركته، وما ذلك بعزيز على رأفته بالمؤمنين ورحمته**"[٦٨]، ومن هذه القصيدة قوله:

يـــا رســـولَ الله عجّـــل بـــالفرج ... قد توالى الكربُ واشتدّ الحـــرج
يـــا رســـول الله في جاهـــك لي ... سعةٌ إنْ ضـــاق بي كـــلُّ نَهَـــج
قســـماً بـــالله مـــا لاذَ امـــرؤٌ ... بكَ في خَطْب دُجـــى إلا ابـــتلج
أنت شمسُ الكونِ والهادي الـــذي ... مـــلأتْ مِلّتُـــه الـــدنيا بَلَـــج[٦٩]

والشاعر عبدالعزيز الزمزمي هو من أكثر شعراء مكة في القرن العاشر الهجري في المدائح النبوية، كما أنه كان من أكثرهم تناولاً للمعاني الصوفية في مدائحه، كفكرة الفناء في الذات الإلهية –تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً– وفي هذا يقول الزمزمي:

له الكراماتُ مثلُ الشمس ظـــاهرةٌ ... حيّاً وميتاً وتكـــريمٌ وتفضـــيلُ
حقيقةً لم يمـــتْ مـــن ذاتُـــه فنيـــتْ ... في الله وهو بذات الله مشـــغولُ
بل لم يزلْ في حيـــاةٍ روحـــه أبـــداً ... نعيمها بشهود الحقّ موصولُ[٧٠]

ومن ذلك –أيضاً– الفكرة الصوفية التي تعُدُّ الرسولَ –صلى الله عليه وسلم– روحَ الوجود، وفي هذا المعنى يقول الزمزمي:

درٌّ نفيسٌ يتـــيمٌ صـــانه صَـــدَفٌ ... من الوجود وأغلى الدرّ ما يَتُمـــا
روح الوجـــود وريّـــاه وعَبْقتُـــهُ ... من طيبه كلُّ طيب في الوجود نما

حياةُ كلّ حياةٍ في النفوس ســـرى لها نسيمٌ شذاه أنعش النّسَـــما[٧١]

وأشير في ختام الحديث عن المدائح النبوية للزمزمي إلى أن عمر فروخ ذكر أن أكثر شعر عبدالعزيز الزمزمي بديعيات، ثم شرح مفردة (بديعيات) بقوله – مقوَّساً- : " مديحٌ في رسول الله"[٧٢].

وفي كلام فروخ اجتمع الصواب وعكسه؛ فأما الصواب فهو ما ذكره من أن أكثر شعر الزمزمي في مديح رسول الله، وقد ذكرتُ سابقاً أنه من أكثر شعراء مكة في القرن العاشر الهجري في المدائح النبوية، ويغلب على مدائحه الطول؛ فهمزيته تجاوزت ثلاثمئة بيت، وميميته قاربت مئتي بيت، وله قصائد أخرى جاوزت مئة بيت.

وأما خلاف الصواب الذي وقع فيه عمر فروخ، فهو تعبيره عن المدائح النبوية بالبديعيات، ومعروف أن مصطلح البديعيات "نمط من قصائد المدح، وخاصة مديح الرسول –صى الله عليه وسلم- ضمّن ناظموها كل بيت منها لوناً أو محسناً من محسنات البديع"[٧٣]، و لم يضمّن الزمزمي مدائحه محسناتٍ بديعية، و لم يهتم لهذا الأمر، ولذلك لم يكن من الصواب وصف مدائحه النبوية بالبديعيات.

٢-شعر المديح:

وإذا تجاوز الباحث في شعر الزمزمي شعرَ المدائح النبوية الطاغي لديه، فإن غرض المديح العام هو الأكثر حضوراً في شعره، بيد أن اللافت في شعر المديح عند الزمزمي أنه يخالف اتجاه هذا النوع من الشعر لدى شعراء القرن العاشر الهجري؛ ذلك أن المديح لدى معظم شعراء هذا القرن كان مصطبغاً بالصبغة السياسية، ويكاد يكون مقصوراً على الأمراء والولاة، والمتتبع لمصادر الشعر في مرحلة القرن العاشر سيلحظ الكثرة الكاثرة لشعر المديح في مكة، وغلبته الساحقة على بقية الأغراض الشعرية؛ ذلك أن الحياة السياسية بما فيها من تحولات وصراعات وأحداث متقلبة صنعت بيئة خصبة للشعراء المداحين، يستقون منها أفكارهم ومعانيهم، ويكسبون من خلالها الكثير من المال، فالصراعات على السلطة التي

كانت بين الحسنيين؛ إخوةً وأبناء عم، وتحولات السلطة والإمارة في مكة بشكل سريع ومتلاحق، أتاحت للشعراء فرص التكسب بالمدائح، كما فرضت نسقاً من المعاني المناسبة لبيئة كهذه؛ فكان المدح بالشجاعة والبطولة والفروسية حاضراً بشكل لافت، كما انتشرت معاني الجود والعدل وردّ الظلم والانتصار للحق داخل قصيدة المدح، وأصبح إعجاب الشاعر بشجاعة الممدوح وقوته وعدله وجوده هي المسيطرة على ذهنية الشاعر إبان مدحه.

أما مدائح الزمزمي فقد انعتق معظمها من هذا النسق، وكانت أهدافها بعيدة عن التكسب، ومناوئة للسياسة وتقلباتها، فالزمزمي أنفق شعر المديح على أصدقائه ومشائخه من العلماء والصالحين والمجاورين وغيرهم، وكان مسكوناً –بفعل المعتقد الصوفي- بالتوسل وطلب النفع والبركة، وقد أفرد باباً كاملاً في ديوانه لمثل هذا النوع من المدائح، وبالغ في توسّلاته مبالغةً تعكس سطوةَ الفكرِ الصوفيّ عليه، بيد أن الباحث يجد لديه بعض المعاني المدحية المقبولة والمعتادة، ومن ذلك وصف أهل العلم بأنهم كواكب نور، وشموس مضيئة، وبحار متدفقة، وغير ذلك، ومن هذا القبيل قوله مادحاً أحد الصالحين:

هو شمس الهدى وأبكـــرُ بـــدرٍ   حـــولهم أنجـــمٌ ذوات نفـــوجِ

هو بحرٌ من المعارف قـــد فـــا   ض فعـــمّ القفـــار بـــالتمويجِ

أيها البحرُ هل لمحـــرور قلـــبٍ   فيك يا مُطفِئ الظما من ولوج؟[٧٤]

ويحمد للزمزمي –مع ما في مدائحه من توسّل- أنه يستجيب لداعي الحب والإعجاب الصادق بالممدوح، فحينما تأسره شخصية عالم من العلماء، يسارع في مدحه بعاطفة دينية ناضحة، وهو فيها يستجيب لذاتيته، ويبدو في مدائحه هذه صادقاً ومتماهياً مع شخصية الممدوح، ومن ذلك مدحه لأحد علماء اليمن إعجاباً بغزير علمه:

أزكـــى ســـلام كالنســـيم العـــابر   عن صـــدقِ ودّ واعتقـــادٍ صـــادرِ

كم قد سمعت بذكره فلقيته ... فرأيته لله أعظمَ ذاكر
وشهدتُ من أحواله ما هالني ... وَمَلا وداداً واعتقاداً سائري
يا سيداً أخلاقُه وسماتُه ... أخذتْ بقلبي نحوَه وبخاطري
لله قلبي قد أحبكَ مخلصاً ... فأحسَّ ذاك الحبَّ ملءُ ضمائري
والمرء مع مَن قد أحبّ كذا أتى ... عن صادق القول النبي الطاهر[٧٥]

ومن جيد مديح الزمزمي رؤيةً وصياغةً شعرية، قوله في أقرب أصدقائه إلى قلبه؛ الشيخ محمد بن أبي الحسن الصدّيقي:

حدّث عن البحر إن حدّثتَ عنه ولا ... عليك من حرجٍ تخشى به التُّهَما
بحرٌ يفيض علوماً من جوانبه ... بالبحث في كلّ فن موجُه التطَما
سلِ الليالِيَ والأيامَ عنه فقد ... مَلَتْ مجالسه قطريهما حِكَما
يُبدي البراعةَ والإبداعَ في سَنَن ... سهل إذا نَثَرَ الألفاظَ أو نَظَما
وإنه قطبُ هذا الوقتِ دون مِرا ... به الوجودُ ازدهى عِطْفَاه وانتظَما[٧٦]

وقد قدّمتُ أن الزمزمي لم يكن من شعراء البلاط، ولم يكن مداحاً متكسباً، لكنّ ذاكرة القرن العاشر الهجري احتفظت له بقصيدة وحيدة مدح فيها الشريف أبا نمي أمير مكة آنذاك، وهنأه بزواج ابنه، والقصيدة ليست موجودة في ديوان الزمزمي، لكنها مثبتة في كتاب (سمط النجوم العوالي) لعبدالملك العصامي، وقد أشرت في حديثي عن ديوان الزمزمي إلى اللبس الذي وقع فيه العصامي في نسبة تلك القصيدة التي جاءت معاني المدح فيها تقليدية ومعتادة في مخاطبة الأمراء الأشراف، على أن شخصية الشريف أبي نمي كانت شخصية استثنائية في تاريخ القرن العاشرالهجري؛ إذ أحبه أهل مكة، وعاشوا إبان عهده في رخاء وأمان، يقول الزمزمي متغنياً بمكارم الشريف أبي نمي:

هو المليك الممتطي صهوةً ... من المعالي قطُّ لم تُمسَس
تدبيره المُلْكَ له ديدنٌ ... فلم ينم عنه ولم ينعس

كـــلُّ عزيـــز ذلّ مـــن بأســـه ... وهابه الرومـــيُّ والشركســـي
كنت لنـــا نجـــمَ حِمـــى أفقِنـــا ... شـــهابه مـــن مـــاردٍ أشـــرس
يا مـــن بـــه الشـــعر سمـــا ذروةً ... على دراري الفَلَكِ الأطلـــس[٧٧]

وفي ختام مبحث شعر المديح عند الزمزمي، يجدر بي أن أشير إلى أن التوسل بالموتى، والمظاهر الصوفية تستبد بكثير من مدائح هذا الشاعر المكي، وهو ينطلق من قصيدة المدح نحو تعيين حاجته عند هذا الولي أو ذاك، ويكثر من التوسل وطلب قضاء الحاجة، ويستوي في ذلك عنده مدح الأحياء أو الأموات الذين يتوسل بهم، ومن ذلك قوله في ضريح أحد الصالحين:

ألا يـــا ســـيداً يُســـعى إليـــه ... ويُفـــزع حـــين تشـــتدّ الشـــدائد
قد اشتدت قد اشتدت وحلّت ... عُرى صبري فأصبح وهـــو نافـــد
عسى مددٌ عسى فرج قريـــبٌ ... يقـــول هجومـــه للكـــرب باعـــد
وفي نفسي حوائج قد أهمّـــتْ ... ودهـــري في تقاضـــيها يُعانـــد
فخذ لي باليدين علـــى يديـــه ... وناصـــرني وعـــاونّي وســـاعد[٧٨]

٣-شعر الشوق والحنين:

الشاعر عبدالعزيز الزمزمي مسكون بحب مكة، ومشدود بعواطفه ومشاعره إلى بيت الله الحرام؛ ولذا لم يكن غريباً أن يستبد به الشوق إلى تلك الأراضي المقدسة حين يغيب عنها في أسفاره وتنقلاته المختلفة، وقد كانت رحلاته كثيرة، ومن هنا تكوّن شعر الشوق والحنين في منظومته الشعرية بشكل بارز، وأضحى من موضوعات شعره الرئيسة، وعقد له قسماً خاصاً في ديوانه، أودعه قصائد شوق ولهفة وحنين إلى مكة المكرمة، وإلى بيت الله الحرام، وأحياناً إلى الحجاز بوجه عام.

وأول ما يطالعنا في شعر الشوق والحنين عند عبدالعزيز الزمزمي، هو زفرات موجعة يطلقها الشاعر من أعماقه فور مغادرته مكة وبيت الله الحرام، فهو يرى أن

هذه الأرض أشبه بالجنة، وأي أرض سواها إنما هي أشبه بجهنم، ويلحّ على الاعتذار عن مغادرته الأرض المقدسة، متمسكاً بالأشواق، ومتعزياً بالحنين الصادق المؤثر:

وإن الثوى في أرض مكة جنّةٌ … وكلُّ دنوٍّ من سواها جهنّمُ
فوالله ما فارقتها عن كراهةٍ … ولا لأمورٍ جمّةٍ تُتَوهّمُ
ولكنْ مقادير بها حَكَمَ القضا … وليس على حكم القضاء تحكّمُ
وإني وإن فارقتُ أعمال مكةٍ … بعودي إليها لا أزال أهمهمُ
رحلنا مطايانا إليها نؤُمّها … فيا حبذا منا إليها التيمّمُ[٧٩]

وهو كثير الاشتياق والحنين إلى بيت الله الحرام، وبخاصة إلى مجلسه هناك؛ حيث حلقته العلمية وتلامذته ومكان صلاته، وكثيرا ما يذكر تلك التفاصيل المكانية حين يغيب عنها في رحلاته المختلفة، ومن ذلك قوله في إحدى رحلاته إلى بلاد الروم:

أراضي الروم هلّا تطردينا … لأرضٍ ذات كثبان وأَثْلِ
سقى الله الحجاز وكل وادٍ … وشِعْب منه مُزناً ذات وَبْل
متى يثني الزمان له عناني … ويجمع بعد ذا التشتيت شملي
وأجلس بين صحبي في مصلى … جماعتهم أدرّس أو أصلي
تجاه البيت والركنين نلقى … تنزُّلَ كلِّ إحسانٍ وفضل
إلهي لا تعذّبني ببعدٍ … وطردٍ عن فنا ذاك المحلّ[٨٠]

وارتباط الزمزمي بمكة والحجاز هو ارتباط إنساني عميق، ولذا نراه سريع التذكر، وشديد التأثر، وكل شيء له ارتباط بتلك الأرض -مهما كان يسيرا- يؤثر فيه، ويهيّج أشواقه، ويستفز لهفته وحنينه، ومن ذلك أنه كان في سفر لبلاد الشام، وحين قفوله صادفته قافلة محملة بالزنجبيل والفلفل والقرنفل؛ مما يُحمل

عادةً من بلاد الحجاز إلى مصر والشام وبلاد الروم، فهيّجت تلك الروائح العطرية شجنه وشوقه إلى مكة والحجاز، فقال:

معـــــــاذ الله أن أنســـــــــى فــــروضَ الحــــبّ أو سُــــنَنَه
وقلـــــبي كـــــل آونــــةٍ يجــــدّدُ ذكرَهــــا حُزُنَــــه
إلى شـــــوقٍ لأجيــــــادٍ أهـــاج مـــن الحشـــا شـــجنَه
ربــــوعٌ هُــــنّ لي ســــكنٌ وهـــل ينســـى الفـــتى ســـكنَه؟
ســـقى الله الحجـــازَ ومَـــنْ أتـــى منـــه ومـــن سَـــكَنَه
وجــــاد ربوعَــــه دِيَمــــاً يــــروّي وبلُهــــا دِمَنَــــه
أعــــدُّ بهــــا المســــيرَ إلى فنــــاء البيــــت ذي السَّــــدنة
أدامَ الله حرمتَــــــــــه عليــــــه وزاده أَمَنَــــــة[٨١]

ويستبد الشوق والحنين بالزمزمي حين توقف في وادٍ في الوجه –وهو في طريقه إلى بلاد الروم– وكان الوادي مليئاً بشجر الأراك، يقول الزمزمي: "**فذكرت به مكة وما حولها من الأراك –والشيء بالشيء يذكر– فداخلني من الشوق والوجد ما لا يكاد يحصر، وتزايد بي الحنين**"[٨٢]، وفي هذا الموقف الشجي يقول:

حشىً فيه من صَـــدْعِ الفـــراق وجَفْنٌ جفاه النـــومُ فهـــو قـــريحُ
وحَسْبُ النوى قلبٌ من الوجْـــدِ ووابلُ دمعٍ في الخـــدودِ سَـــفوحُ
تُرى هل إلى أمّ القُرى ليَ أوْبَـــةٌ تُـــريحُ همـــومي والعنـــا وتُـــريحُ
ويا حبذا بالوجـــهِ وادٍ بســـفحه أَرَاكٌ لـــه طيـــبٌ يُشَـــمُّ وريـــحُ
ذكرتُ بـــه وادي الأراك مـــن وعيشاً مَضَى فيه فظَلْـــتُ أنـــوحُ
رعى الله دهراً مَرَّ حُلـــواً بمكـــة ليـــاليَ عنـــا النائبـــاتُ تـــروحُ
إذِ العيشُ غضٌّ والربوع مُـــنيرةٌ ودهريَ مهما رمتُ منه سَموحُ[٨٣]

ويظل عبدالعزيز الزمزمي متشوقاً إلى أرض الحجاز في كل لحظة يغادرها، ويغيب عنها، ومهما ابتعد عن هذه الأرض، فإن له فؤاداً ينبض شوقاً إليها، وكأنما

كانت هذه الأرض قطعةً من روحه، لا يمكنه الاستغناء عنها، فإن اضطرته الحياة إلى الابتعاد المؤقت، ضجّت روحه، وبكى قلبه:

أعيدا أحاديث الحجاز وشنّفا ... بها مسمعي يا صاحبيّ وشرّفا

لئن بعدتْ عني وشطّت فإنَّ لي ... فؤاداً إلى أخبارها متشوّفا

ويا حبذا أجيادُ شِعْباً وجيرةً ... به وزماناً لي بهم كان مُسعفا

إذِ العمر غضٌّ والأحبة بالحمى ... حُلولٌ ومغنى أنسنا فيه ما عفا

وأفياء بيت الله ثَمَّ وريفةٌ ... علينا وقد مدّتْ من الأمن ما صفا

تبارك من بيتٍ مُنيفٍ، إلهه ... كساه من التعظيم ثوباً وشرّفا[٨٤]

٤-أغراض وموضوعات أخرى:

ثمة أغراض وموضوعات شعرية طرقها الزمزمي في تجاربه الإبداعية، بيد أنها كانت قليلة في عددها، كما أن بعضها جاء على شكل مقطوعات قصيرة، ومع ذلك، فإن عرضها في نهاية هذا المبحث يسهم في تكميل صورة الأغراض والموضوعات الشعرية لدى الشاعر عبدالعزيز الزمزمي، مما يجعل صورة شعره أكثر وضوحاً واكتمالاً لدى القارئ، ويمكن حصر ذلك في غرض الرثاء، وفي نظم الأحاديث النبوية، وهذا الأخير أسوقه هنا تجوزاً؛ فهو ليس غرضاً أو موضوعاً شعرياً، لكنه من مظاهر الشعر التعليمي "الذي ينظمه الشاعر، ويضمنه معلومة أو معلومات بقصد حفظها، وإدراك المعنى فيها"[٨٥].

فأما غرض الرثاء، فلم يرد في ديوان عبدالعزيز الزمزمي شيء منه، لكن العيدروس في النور السافر أورد له قصيدتي رثاء، كانت الأولى في رثاء الوزير آصف خان الكجراتي، والثانية في رثاء الشيخ حامد الجبرتي، وفي كلا القصيدتين يركز الزمزمي على فجيعة العلم وأهله بفقدان المتوفَيْن، ويعدُّ موتهما خسارة للعلم والعلماء قبل كل شيء، ثم يعدد مناقب الميت ومكارمه وأعماله الصالحة كالمعتاد في الرثاء، يقول في رثاء الوزير الكجراتي:

على آصفخان وَجْدي لا يفارقني ... أو تبلغ الروح مني مُنتهى الأجل
لهفي ولهف رجال العلم قاطبةً ... على إمام بتحقيق العلوم مَلِي
على الجواد الذي فاضت مكارمه ... للآملين بما أربى على الأمل
مضى شهيداً إلى دار البقا لبرى ... ما قدّمتْ يدُه من صالح العمل
لقد أعدّ له عند النزول بها ... ربٌّ غفورٌ رحيمٌ أكرمَ النُّزُل
بكت عليه السما والأرضُ إذ ... تهجّداً عند طول الدهر لم يَحلِ[٨٦]

وربما مزج الرثاء بالحكمة، وانطلق من حزنه إلى صناعة عبرة وعظة من الموت، داعياً الناس إلى تدبرها، والاتعاظ بها، فالموت دائما ما يوقظ العقول على حقيقة الحياة المؤقتة، يقول الزمزمي في رثاء صديقه الشيخ الجبرتي:

أيها الغافلُ الغبيُّ تنبّه ... إن بالنومِ يقظةَ الناس أشبه
وتأمّلْ فإنما الناس سفْرٌ ... دار دنياهمُ لهم دار غُربة
كيف يهنا الفتى بها وهو فيها ... يشتكي دائماً فراقَ الأحبة؟
واحدٌ إثر واحدٍ يتداعوا[٨٧] ... للفنا يا لَكُربةٍ إثر كُربة
سقى الله الحجازَ ومَنْ ... أتى منه ومن سَكَنَه
كلُّ حلوٍ بعد الأحبة مُرٌّ ... فحياتي من بعدهم غير عذبة[٨٨]

ورغم طول مرثيتي الزمزمي[٨٩]، إلا أن القارئ لا يشعر فيهما بتأثر وتفجع عميق، بل يبدو الرثاء بارداً، وليس فيها حرارة الصدق والحزن والأسى التي تحرّك وجدان المتلقي وتدفعه إلى التفاعل مع التجربة.

وأما الشعر التعليمي، فهو من مظاهر الحياة العلمية في القرن العاشر الهجري؛ إذ كان النشاط العلمي في ذلك القرن محرّضاً على ذيوع ذلك الشعر وانتشاره، وكثر الشعراء الذين ينظمون بعض النصوص النبوية، أو بعض المسائل الدينية واللغوية وغيرها؛ بغية تقريبها للناس، وتسهيلها للراغبين في حفظها.

وقد حرص عبدالعزيز الزمزمي على نظم بعض الأحاديث النبوية شعراً، وبالأخص تلك التي ترغّب في طلب العلم، وتحثّ على اكتسابه، وتذكر فضله، وثواب طلبه، ومن ذلك نظمه للحديث النبوي (طلب العلم فريضة على كل مسلم)[٩٠]، يقول الزمزمي:

اطلـــــب العلــــمَ ونـــــافسْ | في معانيـــــــــه الغميضَـــــــة
فلقـــــد جــــاء حـــــديثٌ | مـــــــا روى راو نقيضَـــــــه
كـــــلٌّ مســــلمٍ عليــــه | طلـــــبُ العلــــمِ فريضَـــــة[٩١]

ومن ذلك أيضاً حديثه عن فضل طالب العلم وطلبه، مضمّناً قول الرسول – صلى الله عليه وسلم- "من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهّل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن طالب العلم يستغفر له من في السماء والأرض، حتى الحيتان في الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر"[٩٢]، يقول:

لطالب العلم فضلٌ ليس يحصــيه | ضبطٌ وذلك فضـــل الله يؤتيـــه
كرامة تضـــع الأمـــلاكُ أجنحـــةً | منها له لارتضـــا صـــنعٍ يعانيـــه
الله ســـهّل للجنـــات مســـلكه | بكل ممشى لكسب العلم يمشـــيه
وإن عالِـــمَنا من في السماء لـــه | مستغفرٌ وكذا مـــن في أراضـــيه
حتى المقيم من الحيتـــان في لُجَـــج | لم يدر من حلّ فيها غـــير باريـــه
والأنبياءُ رجـــالُ العلـــم وارثـــةٌ | لهم وما خلّفـــوا مـــالاً نســـمّيه
وإنمـــا ورّثـــوا علمـــاً فآخِـــذُه | بأوفر الحظّ قـــد فـــازت أمانيـــه
هذا هو الفضلُ حقاً عن مشـــايخنا | عن الثّقات عن المختار نرويـــه[٩٣]

وهذا النوع من النظم بعيد عن روح الشعر ورونقه، تغيب فيه الجماليات، وتتوارى عاطفة الشعر المتوقدة، وتبهت فيه الشاعرية، ويكتنفه الكثير من مظاهر التكلف والتصنع، وتطغى عليه النثرية والمباشرة الفجّة، بيد أن غايته نبيلة، ومقصده شريف وسامٍ.

• المبحث الثالث/ شعر عبدالعزيز الزمزمي، رؤية نقدية:

إن شعر عبدالعزيز الزمزمي يمثل أنموذجاً ناطقاً بمستوى الشعر في القرن العاشر الهجري في مكة وبلاد الحجاز، ويمكن أن نعدَّ شعر الزمزمي وسطاً بين الجودة والضعف في منظومة الشعر في القرن العاشر، بيد أنه كان –في رأيي– إلى الضعف أقرب في كثير من تجاربه الشعرية، وربما كان السبب في ذلك يعود إلى ضعف موهبته الشعرية وفقرها، وإلى تعمده تطويل قصائده بشكلٍ مُبالغٍ فيه، في الوقت الذي تعجز فيه قريحته، وتقصر موهبته عن مواكبة ذلك الطول، فتجيء التجربة وقد غلب عليها –غالباً– الهزال والضعف، وفتكت بها الضرورات والتجاوزات اللغوية.

والشاعر عبدالعزيز الزمزمي عالِمٌ من علماء الشريعة قبل أن يكون شاعراً، وقد انطبع قدْرٌ كبيرٌ من شعره بطابع شعر العلماء الذي يتوارى فيه الطبع غالباً، ويقلّ تدفق الشاعرية، وتجنح اللغة فيه إلى التقريرية والمباشرة والوضوح على حساب الجمالية والتكثيف والإيحاء، على أن هذا ليس عاماً في شعره كله، وإنما هو الغالب، وسأحاول في هذا المبحث إنجاز دراسة نقدية موجزة عن شعر الزمزمي من خلال العناصر الفنية الأساسية في الشعر.

• الرؤى والأفكار:

المتأمل في شعر عبدالعزيز الزمزمي يجد أن أغلب نتاجه يعود إلى الشعر الديني بموضوعاته المختلفة، ومن هنا كانت رؤاه الأساسية تدور في فلك هذا الشعر، كما أن الرجل يعدّ من أكثر شعراء مكة في القرن العاشر الهجري نظماً في المدائح النبوية، سواء أكان ذلك في عدد القصائد أم في طولها، لكن اللافت في رؤاه الكلية ومعانيه الجزئية صدورها عن فكر تتناوشه كثير من أفكار المتصوفة ومعتقداتهم، كالحديث عن الفناء في الذات الإلهية، أو الحديث عن أن الرسول –صلى الله عليه وسلم– أصل الوجود، فضلاً عن الغلو في المدائح النبوية، والتوجه إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بالمطالب الدنيوية، والتوسل بقبور الأولياء والصالحين، وشكوى الحاجة إليها، معتقداً –بسبب سيطرة الفكر الصوفي عليه– أن بركة أولئك الموتى تحلّ، وأن حاجته تقضى.

ويبدو أن الفكر الصوفي كان مستشرياً في مكة في القرن العاشر الهجري، ولذلك لم نجد من ينكر على الزمزمي هذا الفكر، بل كان الأمر يسير وفق النسق المعتاد، والزمزمي معدود من العلماء الفقهاء، ومع ذلك فهو يقف على الأضرحة يطلب البركة من أصحابها، وهذا كثير جداً في شعره، ومنه قوله:

قفا بي عند قبر الشيخ طلحة ... عساه عساه ينفحني بنفحة
ويعطيني ويمنحني مرادي ... فكم للشيخ إعطاء ومنحة[٩٤]

وقد سار في قصائد كثيرة جداً من ديوانه على هذا النحو من طلب الحاجة من أصحاب القبور الذين لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، واعتاد على تعيين حاجته لدى القبر، كالشكوى من همّ الدَّين، والتوسل بالعون على قضائه، ومن ذلك قوله:

إلى الغماريّ أشكو ما ألاقيه ... من همّ ديني ومن حملي رواسيه
بيُمنه ارتجي ربّاً عليّ به ... قضى بموسم هذا العام يقضيه
إليك يا صاحب القبر الذي اكتُفيتْ ... به الحوائج لا تعدو نواحيه[٩٥]

وإذا تجاوز الباحث في شعر الزمزمي هذه المظاهر المخالفة والمنتشرة في شعره، سيجد لديه نمطَ رؤيةٍ آخر، يبدو أجمل وأصفى، وهو الحنين والشوق إلى مسقط رأسه مكة المكرمة، وإلى البيت الحرام وسائر بلاد الحجاز، وتبدو معانيه في هذا السياق مقبولة ومألوفة، وذات بعد إنساني واضح، وعاطفة صادقة، وهو يركز في حنينه على اشتداد الشوق، واستبداد الجزع، ويظل يلحّ –طيلة التجربة– على أمل العودة، لتهدأ روحه:

حشيً فيه من صَدْع الفراق قروحُ ... وجَفْنٌ جفاه النومُ فهو قريحُ
وحَسْبُ النوى قلبٌ من الوجْدِ ... ووابلُ دمع في الخدودِ سَفوحُ
تُرى هل إلى أمّ القُرى ليَ أوْبَةٌ ... تُريحُ همومي والعنا وتُريحُ[٩٦]

وفي مدائح الزمزمي، نراه ذا عاطفة دينية، يستجيب فيها لداعي الحب والإعجاب بالشخصية، وجُلُّ مدائحه تتوجه إلى العلماء من أساتذته أو أصدقائه، ويركز في تلك المدائح على معانٍ عامة من قبيل كريم الأخلاق، ونبيل الصفات، مع التأكيد الدائم على الحب المخلص الذي يحرّك مشاعره تجاه ممدوحه:

يـــا ســـيداً أخلاقُـــه وسماتُـــه أخـــذتْ بقلـــبي نحـــوَه وبخـــاطري
لله قلـــبي قـــد أحبـــكَ مخلصـــاً فأحسَّ ذاك الحبَّ ملءُ ضـــمائري[٩٧]

ومدائح الزمزمي النبوية تتأسس على روح صوفية –كما أسلفت– بيد أن قارئها يلحظ فيها يقظة شعورية دينية يفجرها موقف من مواقف التعب والعوز والحاجة التي تنتاب الشاعر في حياته، ولا يجد وسيلة للتنفيس سوى الإفضاء والبوح، وهنا تتمازج رؤى مدح الرسول –صلى الله عليه وسلم– برؤى التوسل وطلب النجدة وقضاء الحاجة، يقول الزمزمي في إحدى مدائحه النبوية:

إليكَ هربتُ من مرهـــوب ذنـــبي فمنـــه إليـــك ينجـــيني الهـــروبُ
أغـــثني إنـــني شـــارفتُ قـــبري وقلـــبي عـــود قســـوتِه صـــليبُ[٩٨]

على أنه كثيراً في مدائحه النبوية ما يكرر المعنى، ويبالغ في أدائه، ولا يضيف إليه شيئاً يخفف من تكراره إياه، وهذا قد يعكس محدودية المعاني لديه، وفقره الرؤيوي، ومن ذلك قوله في همزيته:

أبلـــجٌ مشـــرقٌ جميـــل المحيّـــا لـــو تجلّـــى لـــيلاً جـــلا الظلمـــاءَ
شيم من بشره النوال كما شيـــ مَ ســـنا بـــرق ديمـــة وطفـــاء[٩٩]

ثم قوله في قصيدة أخرى من قصائد المدائح النبوية:

حَسَنُ الخَلْـــق جميـــلٌ مشـــرقٌ مـــن رأى حُســـنَ محيّـــاه ابتـــهج
أبلج إن لاح في جنح الـــدجى خلت من لألائه الصـــبح انـــبلج[١٠٠]

وتبدو الثقافة الدينية سمة بارزة في رؤى الزمزمي ومضامينه، فهو يتكئ عليها كثيراً، وينطلق منها ليؤسس معانيه الجزئية، ويبدو الأمر سائراً في نسقٍ طبيعي؛ فالزمزمي عالم في الشريعة، كما أنه عاش كامل حياته في بيئة دينية في مكة وفي بيت الله الحرام، ومعظم شيوخه وأصدقائه وتلامذته من علماء الشريعة، ومن مجاوري بيت الله الحرام، فكثرت مخالطته للعلماء ومجالسته إياهم، وهذا كله انعكس على ثقافته وشعره، وكما كانت جلّ موضوعاته ذات طابع ديني، كانت رؤاه ومعانيه كذلك، ونراه كثيراً ما يركز على البعد الديني مهما اختلف الموضوع.

وأكثر من يعكس الثقافة الدينية في شعر الزمزمي هو حضور القرآن الكريم في شعره؛ معنى ومفردة وتركيباً، وهذا كثير جداً في قصائده، وأكثر ما يكون في مدائحه النبوية التي حاول تدعيم المعاني فيها بالاقتباس من كتاب الله، ومن ذلك قوله عن الرسول –صلى الله عليه وسلم-:

جُعلنا أمةً وسطاً خياراً ... به والخيرُ يطلبه الأريبُ
ودعوته لأمته خباها ... وقد وعد استجابتَها المُجيبُ
رؤوفٌ راحمٌ بهمُ عزيزٌ ... عليه مشقةٌ لُهمُ تُصيبُ
رسولٌ من نفوسهمُ حريصٌ ... عليهم لا يريبهُمُ مُريبُ[١٠١]

وجلّ الرؤى والأفكار التي طرقها عبدالعزيز الزمزمي في شعره تبدو واضحة، وبعيدة عن الغموض، وأحسب أن هذا جزء من طبيعة الشعر في القرن العاشر الهجري، فمعظم شعراء تلك المرحلة كانوا يصدرون عن معانٍ واضحة وبعيدة عن الغموض، حتى لو كان هذا الغموض فنياً، ويزيد المعنى جمالاً أو عمقاً، وربما كان وضوح المعاني مناسباً لحال المتلقين الذين لم يكونوا –غالباً– من أهل تذوق الشعر ونقده والحكم عليه، بل كانوا من عامة الناس أو من طلاب العلم الشرعي الذين لا خبرة لهم بالشعر.

على أن الوضوح الذي أتحدث عنه في شعر الزمزمي ليس دليل مباشرة وفجاجة وتسطيح دائماً، وإنما المقصود به أن يكون الكلام ظاهر الدلالة على المعنى المراد، بحيث لا يتعب المتلقي في فهمه واستيعابه[١٠٢]، على أن القارئ ربما وجد في شعر الزمزمي بعض المعاني المباشرة، أو الرؤى الفجة التي تبدو غير مستساغة، من مثل قوله:

وكنتُ في عاميَ الماضي قصدتك في ... دينِ عليَّ عسى عني توفّيه
وفيتُ معظمه والآن جئتك في ... دينِ تجدّدَ منضافاً لباقيه
وفٍّ الجميع فإني قد لزمتك في ... قضائه فاقضه عني وأدّيه[١٠٣]

ولا تخفى المباشرة والنثرية الطاغية في هذه الأبيات، ومن ذلك –أيضاً– هذه المعطوفات المتوالية التي لا أثر لها في المعنى، ولا تضيف للفكرة شيئاً، وإنما جاء بها لإكمال البيت وإقامة وزنه، فبدت ساذجة وغير مستساغة:

وأبصرُ نفسي بين أهلي وأسرتي ... ورهطي وأصحابي وقومي وإخواني[١٠٤]

وتستشري في شعره ظاهرة النيل من الزمن، واتهامه بالظلم والجور والعدوان، وهو سياق غريب في شعر عالم من علماء الشريعة، بيد أنه مظهر شعري منتشر في شعر هذا العصر، ومنه قوله:

إلى الله أشكو من تباريح أحزاني ... وبثّي وبُعدي عن عيالي وأوطاني
بحكم زمانٍ ظالمٍ جار واعتدى ... عليّ وعن قصدي عداني وعاداني[١٠٥]

- **بناء القصيدة:**

تجيء معظم تجارب عبدالعزيز الزمزمي على قدر من الطول والامتداد، وبالأخص مدائحه النبوية التي تجاوزت إحداها ثلاثمئة بيت، وتجاوزت أخرى مئتي بيت، وكثير من قصائده تلامس المئة بيت، وواضح من هذا أن الشاعر يتعمد تطويل قصائده، ومدّ النَّفَسِ فيها، وربما كان هذا المظهر مما يتنافس عليه الشعراء في ذلك القرن، بيد أن شاعرية الزمزمي المتواضعة تخذله، وتوقعه –مع طول

القصيدة- في كثير من الارتباكات الصياغية واللغوية والعروضية التي من شأنها أن تنزل بمستوى تجربته فنياً.

والفاحص لبناء القصيدة عند الزمزمي يجده غير عابئ بالمقدمات التقليدية للقصيدة العربية إلا في بعضٍ قليل من مدائحه النبوية التي يبدؤها بالنسيب، كقوله في مطلع همزيته:

أثغورٌ منها الصـــباح أضـــاءَ أم بروقٌ على النقـــا تتـــراءى؟[١٠٦]

كما أن له قصيدة مدحٍ يتيمة افتتحها بالنسيب، وهي في المدح السياسي؛ ذلك أنه مدح فيها الشريف أبا نمي، ومطلعها:

ليحتسِ الصهباءَ من يحتســـي حسبي لمى مرشـــفك الألعـــسِ[١٠٧]

وأشير إلى أن ترك الزمزمي للمطالع التقليدية في القصيدة العربية يبدو أمراً مألوفاً، فالشعراء غالباً يحافظون على هذا التقليد البنائي في قصائد المديح السياسي، والزمزمي لم يكن -كما قدمت- شاعراً مدّاحاً، والمقدمات في الغالب تصاحب قصائد المديح.

وبالنظر إلى مطالع الزمزمي إجمالاً، يظهر للمتأمل أن الزمزمي لم يوفق كثيراً في أداء مطالعه بالشكل الذي يلفت نظر القارئ، ويغريه بقراءة القصيدة، ففي إحدى مدائحه النبوية يفتتح القصيدة بقوله:

نَظْمُ شعري عنه يقصّر نثـــري فاز شعري فلم أقل ليت شـــعري[١٠٨]

وواضحٌ أن البيت مصوغ بركاكة وتكلّف، فثنائية (النظم والنثر) ليس لها معنى يضيف شيئاً، وتكرار مفردة (شعري) فيه تكلف ظاهر، واستدعاء عبارة (ليت شعري) بدا ثقيلاً دون أن يكون ثمة توظيف يخدم المعنى أو الصياغة، ويبدو أن حرص الشاعر على فكرة الثنائية الضدية بين الشعر والنثر قد قاده إلى هذا السبك الرديء لهذا البيت الذي يجيء مفتاحاً لقصيدة طويلة.

ومن مطالعه غير المستساغة فنياً قوله:

هنيئاً لمن زار قبر ابــنِ أفلــح لقد فاز فــوزاً عظيمــاً وأفلــح[١٠٩]

فالنثرية طاغية على صياغة البيت، مع سذاجة الجناس وتكلّفه الذي لا يخفى، فضلاً عن اشتمال البيت على مخالفة عقدية ظاهرة.

وكثير من مطالع الزمزمي لم تكن موفقة في صياغتها أو فيما انطوت عليه من معنى، بيد أن هذا ليس عاماً في سائر مطالعه؛ فقد يُوفق في شيء منها، كقوله في مطلع قصيدة يشتاق فيها إلى مكة وبلاد الحجاز:

حشىً فيه من صَدْعِ الفراقِ قروحُ وجفنٌ جفاه النومُ فهو قــريحُ[١١٠]

وقوله في رحلة طويلة كان قافلاً فيها من اليمن إلى مسقط رأسه مكة:

ظعنّا فنودينا عــن الشــر: وجئنا فقال الخير: جئــتُ وجئــتمُ
وما كان ذاك البُعدُ إلا دُجُنَّةً جلاها اقترابٌ صبحه متبسّــمُ[١١١]

ويُلحظ أن مطالعه في قصائد الشوق والحنين تبدو أجود وأجمل مقارنة بمطالعه الأخرى، وهذا له علاقة بجودة القصيدة بشكل عام، فالزمزمي يبدو في قصائد الشوق والحنين أقدر وأكثر شاعرية منه في قصائده الأخرى التي غلب عليها الضعف والتكلف.

وأما خاتمة القصيدة عند الزمزمي فقد جاءت في الغالب دعاءً لمن وجّهت القصيدة إليه، سواء أكان ممدوحاً أم مهنّأً أم مرثياً، وإن كان مرثياً فقد تجيء الخاتمة دعاء للقبر بالسقيا، وللميت بالرحمة، وربما ختم بعض قصائده بالتأريخ الشعري، بيد أن أكثر نهايات القصائد عنده تكون بالصلاة والسلام على النبي –صلى الله عليه وسلم-، وهي ظاهرة شائعة جداً في قصائد شعراء القرن العاشر الهجري والقرن الذي سبقه، وتكثر هذه الظاهرة في شعر المدائح النبوية بشكل واضح.

وظاهرة ختم القصائد بالصلاة والسلام على رسول الله –صلى الله عليه وسلم- من الظواهر التي استحسنها شعراء القرن العاشر، وأغرموا بها، ولا يكادون

يعدلون عنها حتى في النصوص القصيرة، و لم يعد الشاعر مهتماً بانقطاع فكرة بيته الأخير عن الذي سبقه؛ ذلك أن غاية ما يفكر فيه أن يكون ختام قصيدته صلاة على النبي –صلى الله عليه وسلم– بيد أن هذا أوقع كثيراً منهم في نثرية طاغية، لعدم قدرتهم سبك الخاتمة، وصهر مكوناتها في القصيدة، والزمزمي أحد هؤلاء، انظر إلى مثل قوله مختتماً إحدى تجاربه:

أزكى صلاة وتسليم عليك ... عليهما لي عند الكرب تعويلا
كذا على آلك الأطهار ثم على ... جميع صحبك إجمالاً وتفصيلا[١١٢]

وانظر إلى خاتمة أخرى تكاد تكون منسوخة من سابقتها:

عليك أزكى صلاة من إلهك لا ... ينفكّ منه بها التسليمُ متصلا
كذا على الآلِ والأصحابِ قاطبةً ... ما سار ركب إلى مغناه أو قفلا[١١٣]

ترَ النثرية طاغيةً على الصياغة الشعرية، وكأن التجربة تحولت إلى كلام تقريري ليس له من الشعرية حظ أو نصيب، وهو مظهر مكرور في خاتمة القصيدة في شعر الزمزمي.

وقد تجتمع أنماط الخاتمة الثلاثة (الدعاء والتأريخ الشعري والصلاة على رسول الله) في خاتمة واحدة عند الزمزمي، فتتحول الخاتمة إلى قطعة شعرية متكاملة، ومثال هذا قوله في خاتمة قصيدته التي رثى فيها الوزير آصف خان الكجراتي:

يا من يسائل عن تاريخ مصرعه ... عنه الجواب (انقضى) فاكفف ولا
عليه والله لا أنفكُّ ذا أسفٍ ... أُهدي إليه الدعا ما امتدّ في أجلي
هَمَتْ على روض قبر حلّه دِيَمٌ ... من الرضا ما همى دمعٌ من المُقَل
ثم الصلاة على المختار من ... خير البرية طه خاتم الرسل
والآل والصحب ما أوفى ... بيت الإله وحيّا الركن بالقُبَلِ[١١٤]

ويبدو أن مثل هذه التقاليد الشعرية التي التزم بها الزمزمي في خاتمة معظم قصائده قد صرفته عن الاهتمام بتجويد الخاتمة وتحسين عرضها، فلم أجد في تجاربه

—مع كثرتها- ختاماً عميقاً يتضمن فكرة جديدة او طريفة، أو حتى ملاءمة لموضوع القصيدة وأفكارها، ولا تكاد تجد لديه عناية صياغية بالبيت الأخير من حيث عذوبة اللفظ وحسن الصياغة الشعرية، وجودة المبنى وعمق المعنى.

ومع وجود الجو النفسي في كثير من قصائد الزمزمي، فإن ذاك لم يكن كافياً لتتكامل تلك القصائد فنياً وشعورياً؛ ذلك أن قصيدته —كغالب قصائد العصر- لم يكن فيها التزام في "ترتيب الصور والأفكار ترتيباً به تتقدم القصيدة شيئاً فشيئاً، حتى تنتهي إلى خاتمة يستلزمها ترتيب الأفكار والصور"[١١٥]، وهو أمر تتحكم فيه موهبة الشاعر وقدراته الخاصة، وأظن أن الزمزمي لم يكن يملك موهبة عالية تتيح له التحكم في تجربته، وبناءها بناءً متنامياً على المستويين الفني والشعوري، ومشكلة ضعف الموهبة تبدو أمراً شائعاً في معظم شعراء القرن العاشر الهجري على كل حال.

- **اللغة الشعرية:**

المتأمل في شعر شعراء القرن العاشر الهجري يجد الوضوح والمباشرة صفةً بارزة وغالبة على لغة الشعر وقتذاك، حيث نأى الشعراء عن الإغراب في اللفظ والتعميق في المعنى، وحرصوا على نوعٍ من الوضوح الذي يجعل رؤاهم قريبة للمتلقي، وإن كان ذلك على حساب فنية الشعر وجماليته غالباً، وإن حاول بعضهم المواءمة بين ألفاظهم وأفكارهم، بحسب قدراتهم ومواهبهم، كأن تجيءَ لغةُ المدائح والفخر والهجاء جزلةً فخمةً، وتجيءَ لغة الغزل والرثاء والحنين والابتهالات عذبةً رقيقة، وهو أمر وُفّق إليه قليلٌ من شعراء هذا القرن، ولم يوفّق إليه أكثرهم.

وفكرة الرقة والجزالة ليست مقصورة على صياغة اللفظ أو نطقه، بل إن لها فلسفة لغوية اختصرها ابن الأثير حين قال: " ولست أعني بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشياً متوعراً عليه عنجهية البداوة، بل أعني بالجزل أن يكون متيناً على عذوبته في الفم، ولذاذته في السمع، وكذلك لست أعني بالرقيق أن يكون ركيكاً سفسفاً، وإنما هو اللطيف، الرقيق الحاشية، الناعم الملمس"[١١٦].

وإذا كان الأمر كذلك، فإن الموهبة والقدرات الخاصة ستكون معياراً أساساً وحاسماً في جودة اللغة الشعرية عند هذا الشاعر أو ذاك، وقد مضى بأن الشاعر عبدالعزيز الزمزمي لم يكن ذا موهبة عالية، وكانت قدراته الإبداعية محدودة نسبياً، ولذا جاءت لغته واضحة ومباشرة في معظم سياقاتها، فاكتست روح لغة العلماء التي عرف عنها نقص التجويد، والاتكاء على المباشرة والوضوح، وتدثرت لغته بالتقريرية غالباً، وجرى أسلوبه في نسق المباشرة والضعف غالباً؛ إذ افتقد إشراق العبارة وإحكام النسج في كثير من نماذجه؛ لأنه لا يصدر عن طبعٍ مُواتٍ، ولا عن موهبة عميقة، فتوارت فيه الصياغة المحكمة التي تُضفي على الرؤية جلالاً، وتكسوها حُلّة جمال وبهاء، تأمل قوله:

على الله هذا الأمر سهل سألت ... يحققه ربي بيُمْن ابن علوانِ
إمام طريق الله مرشد أهلها ... وقائدهم طوعاً له دون أرسانِ
فأفرغ في فيه الذي فيه صبّه ... وذلك سرٌّ غامض العلم ربّاني
فمنه تلقّى ما تلقّى ونال من ... معارف حتى صار واجد ذا الشانِ[١١٧]

وقوله:

فكن معيني وشُدّ أزري ... ومن بنائي اشدد الأسوسا
وأرتجي منك أنّ أذني ... للنار لا تسمع الحسيسا
حيّاك عني الحيا وأحيا ... زروع مغناك والغروسا
وهاكها مدحةً جلاها ... ناظمها الزمزمي عروسا[١١٨]

تجد اللغة قد أسهمت في إضعاف النسيج الشعري للتجربة؛ ذلك أنها جاءت لغة مباشرة وتقريرية، وليس فيها إشراقة مفردة، أو دهشة عبارة، أو إحكام تركيب، ومعلوم أن إحكام الصياغة الشعرية إنما هو لبّ الموهبة الشعرية وأساس تكوينها.

وفي المدائح النبوية تبدو لغة الزمزمي عادية ومباشرة كما هي في بقية أغراضه، بيد أنه –مع طول المدائح– يضطر كثيراً إلى سرد الصفات أو المتعاطفات المتوالية؛ ليستطيع إقفال شطر البيت، وهو أسلوب يعكس سذاجة لغوية، وتكلفاً ظاهراً، انظر إلى قوله:

فهو الجواد الذي عمّ الوجود بما ... من جوده فاض حتى عُلّ مَن نَهَلا
الفاتح الخاتم الهادي الدليل إلى ... سُبْل الرشاد وناهيكم بها سُبُلا
محمدٌ أحمدُ المحمودُ أحمدُ مَنْ ... لسورة الحمد والذكر الحميد تلا[١١٩]

وقوله:

وأبصرُ نفسي بين أهلي وأسرتي ... ورهطي وأصحابي وقومي وإخواني[١٢٠]

وديوان الزمزمي مليء بالألفاظ والأساليب المبتذلة التي لا تصلح للغة الشعر، ولا تختلف عن لغة الحياة اليومية التي يتحدث بها العامة، وهي ظاهرة بارزة جداً في لغة قصائده، لا سيّما تلك التي يخاطب فيها أهل القبور شاكياً وطالباً للعون، أو تلك التي يمدح فيها أصدقاءه ومشائخه، وحتى بعض مدائحه النبوية الطويلة لم تسلم من هذا الوهن، ومن نماذج ذلك قوله شاكياً:

لقد خانني بغلي ورجلاه زلّتا ... فخذ بيدي إني سقطتُ على وركي[١٢١]

وقوله:

وأجلسُ بين صحبي في مصلّى ... جماعتِهم أدرّس أو أصلّى[١٢٢]

وقوله:

كان قصدي أزوركم من قريبٍ ... وأرى نور ربعكم وابتلاجه
أنصفوني منه فإني ضعيفٌ ... لا أقاوي جدالَه واحتجاجه[١٢٣]

وقوله:

أمانةً أمانةً ... إن أسعفتك الأقدار

سلّم على من سلّمتْ	عليه صمٌّ الأحجار
نيابة عني وقل	عاقت خطاه أقدار[١٢٤]

وتبعاً لهذا الوهن اللغوي، تشيع في شعره مفردات لا يستسيغها النثر الفني فضلاً عن الشعر، من مثل (خصوصاً، نيابة عني، مدة شهرين، الأنفار، العيال، وركي) وغير ذلك من المفردات التي تسهم إسهاماً مباشراً في إضعاف التجربة، وإيهان نسيجها، ولا تقبلها لغة الشعر المشرقة.

على أن لغة الزمزمي في رثائيتيه اليتيمتين، وفي شعر الحنين والشوق إلى مكة والحجاز والبقاع المقدسة، تبدو لغةً أجملَ وأكثرَ إشراقاً، وتتضاءل فيها أسباب الضعف الكامنة في لغة الأغراض الأخرى؛ ذلك أنها –وإن لم تكن محلّقة وبارعة– جاءت سهلة وخالية من الرتابة التي نجدها في جُلّ شعره، تأمل قوله:

حشىً فيه من صَدْعِ الفراق قروحُ	وجَفْنٌ جفاه النومُ فهو قريحُ
وحَسْبُ النوى قلبٌ من الوجْدِ خافقٌ	ووابلُ دمع في الخدودِ سَفوحُ
تُرى هل إلى أمّ القُرى ليَ أوْبَةٌ	تُريحُ همومي والعنا وتُريحُ
ويا حبذا بالوجهِ وادٍ بسفحه	أَرَاكٌ له طيبٌ يُشَمُّ وريحُ[١٢٥]

تجد اللغة أكثر إشراقاً ورصانة، وهذا ساعد التجربة على البوح بمكنوناتها النفسية المنطوية على الشوق والحنين إلى الديار المقدسة، وقريب من هذا الأنموذج قول الزمزمي:

أعيدا أحاديث الحجاز وشنّفا	بها مسمعي يا صاحبيّ وشرّفا
لئن بعدتْ عني وشطّت فإنَّ لي	فؤاداً إلى أخبارها متشوّفا
ويا حبذا أجيادُ شِعْباً وجيرةً	به وزماناً لي بهم كان مُسعفا
إذِ العمر غضٌّ والأحبة بالحمى	حُلولٌ ومغنى أنسنا فيه ما عفا
وأفياء بيت الله ثَمَّ وريفةٌ	علينا وقد مدّتْ من الأمن ما صفا

تبارك من بيــتٍ مُنيــفٍ، إلهــه كساه من التعظيم ثوباً وشــرّفا[١٢٦]

ويحمد للزمزمي في لغته الشعرية أنه لم يُفتن أو يتعلق بالزخرفة اللفظية والصناعة اللغوية كثيراً، فلم يُغرق شعره في البديعيات، بل جاء استثماره لبعض فنون البديع -في الغالب- عفوياً لا تكلف فيه، وهذا ملمحٌ حَسَنٌ في لغته، انظر إلى قوله:

وميضُ البرقِ بعد سِــنَة نفــى عــن نــاظري وَسَــنَه
وذكّرني عهــودَ هــوىً بهــا الأرواحُ مُرتهنــة[١٢٧]

ومن طريف استثماره لفنون البديع براعته في توظيف التورية، فقد كانت له جاريتان اسم الأولى منهما (غزال) واسم الثانية (دام السرور)، وقد اضطرته الحاجة إلى بيعهما، فندم وتحسّر، وقال إثر ذلك:

بجاريتيَّ كنتُ قريــرَ عــين وأُفْــقُ مســرّتي بهمــا مُــنيرُ
فنفّرَ صرفُ أيامي (غــزالي) فما دامت ولا (دام السرورُ)[١٢٨]

فالمعنى القريب المتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى أنه فَقَدَ السعادة والسرور الذي كان يعيش فيه، ولكن الشاعر أراد بقوله: (دام السرور) اسم جاريته التي فَقَدَها.

وبالمجمل العام، فإن الشاعر عبدالعزيز الزمزمي لم يكن من الشعراء المقتدرين في اللغة الشعرية، بل كانت لغته مرتبكةً غالباً، وتجنح إلى المباشرة والتقريرية والوضوح الذي ينافي تكثيف اللغة وإيحائيتها، كما أنه أكثر من استعمال اللغة اليومية التي تجري في ألسنة العامة، وهذا أضعف تجربته الشعرية، وقطع بعض أسباب الجمال فيها، على أن بعض تجاربه -وبالأخص تجارب الشوق والحنين إلى مكة والبيت الحرام- بَدَتْ فيها اللغةُ أجود، وأكثر إشراقاً، وتخلّصت من كثير من العيوب والارتباكات السابقة.

- **الصورة:**

الصورة في الدراسات الأدبية مصطلح نقدي متعدد الأطر، وهو درجة أعمق من درجات البناء اللغوي للنص، ويمكن اختصار مفهوم الصورة في التجربة الإبداعية بأنها "تشكيل لغوي يكوّنها خيال الفنان من معطيات متعددة، يقف العالم المحسوس في مقدمتها"[١٢٩]، كما يمكن وصفها بالتركيبة اللغوية الناتجة عن امتزاج الشكل بالمضمون في سياق بياني خاص يستثمر الإيحاء؛ ليعبّر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية[١٣٠].

وترتبط الصورة بالخيال ارتباطاً وثيقاً؛ فهو مصدرها، وهو المَلَكَة التي يستطيع من خلالها المبدع أن يؤلّفَ صورة مدهشة تخطف الألباب، وتحقق التأثير في نفس المتلقي، ومن هنا كانت حاجة التجربة الإبداعية إلى الصورة معادلةً لحاجتها إلى القوة والحياة؛ ولذا كان تأثير الصورة في النص خطيراً، وكان خيال المبدع -ثراءً وخصوبةً- فيصلاً في ثراء النص وارتفاع قيمته الفنية، وازدياد فرص خلوده؛ ذلك أن "قوّة الشعر تتمثل في الإيحاء بالأفكار عن طريق الصور،لا في التصريح بالأفكار مجردة، ولا في المبالغة في وصفها"[١٣١]، والتجربة الشعرية لا تكتمل ولا تحقق التأثير في روح المتلقي إلا عن طريق الإبداع والتحليق في رسم الصورة، وإحكام دمجها في نسيج النص.

وحين نتأمل شعر الزمزمي إجمالاً يمكن الحكم أنه لم يكن من شعراء الصورة، ولم يكن يمتلك البراعة في رسم الصور وبثّها في نسيج النص الشعري، وهو —مثلُ كثيرٍ من شعراء عصره- يحاول الاتكاء على الصورة الحسية المجردة المدركة بالحواس، ويستثمر في سبيل ذلك تقنية التشبيه كثيراً، بحيث يجيء المشبه به محسوساً، وربما كان هذا بسبب ضعف المَلَكَة الإبداعية لديه، كما أن للبيئة ومظاهرها المحسوسة أثراً في ذلك؛ إذ تمثّل مادة خصبة وميسورة التوظيف مع تنوّع مظاهرها ومعالمها، وهي قادرة —في الوقت ذاته- على إيصال الصورة إلى ذهن

المتلقي بشكل أكثر وضوحاً، وإن كان أقلّ جمالاً ودهشة، فالصور تبدو تقليدية ومكرورة، ومن ذلك قول الزمزمي:

أنت بدرٌ مشــرقٌ إن أقبلــتْ ... ظُلَــمُ الخطْــبِ بلــيلات المحــاق
أنت شمسُ الكونِ لا ينكرهــا ... غــيرُ مغمــوصٍ عليــه بالنفــاق
أنت بحرٌ ما لــه مــن ســاحل ... أبحُــرُ الــدنيا لديــه كالســواقي
لك خُلْــقٌ خصّــك الله بــه ... ما لمــن لا يرتضــيه مــن خــلاق
خُلُقٌ يبسِم عــن زهــر الرُّبــا ... للحِلا مــن خلْقِــه طِبــق الوفــاق
مسفرٌ عن حُسنِ وجــهٍ بــاهرٍ ... فَلَقُ الصــبح بضــوء وانفــلاقِ[١٣٢]

وقوله:

هو شمسُ الهدى وأبكــر بــدرٍ ... حــولهم أنجــمٌ ذواتُ نفــوجِ
هو بحرٌ من المعــارف قــد فــا ... ضَ فعــمّ القفــارَ بــالتمويج
أيها البحرُ هل لمحرورِ قلبٍ ... فيك يا مطفئَ الظَّما من ولوجِ؟[١٣٣]

وتبدو هذه الصور المعتمدة على البيئة المحسوسة تقليدية ومكرورة، ولا جديد فيها، وهذا دليل على ضعف الملكة، وفقر المخيلة، على أن هذا يبدو شأن الصورة في جُلّ تجارب شعراء القرن العاشر الهجري.

وواضحٌ أن الزمزمي لا يعتني بصورته الشعرية، ولا يحاول إغناءها، ولذا تجيء الصورة عنده -في الغالب الأعم- ساذجة ومسطحة، وضعيفة الارتباط بالمعنى والمنطق، ومن ذلك قوله من رثائيته للوزير الكجراتي يصور تأثره حين سمع نبأ وفاته:

أصمَّ أذني به الناعي وأسمعــني ... أمراً به صرتُ مثــلَ الشــارب الثّمِــلِ
وهو البشير بضدّ الأمر ربّتما ... أصيب من هول هذا الخطب بالخَطَلِ[١٣٤]

فالصورة التشبيهية في البيت الأول بدت غير منطقية، وغير مناسبة للمعنى والسياق، فليس ثمة إيحاء يمكن أن يقبله الذوق يجمع بين حالة من يسمع نبأ وفاة عزيز لديه وحالة السُّكْر.

ومن ذلك تشبيهه ممدوحه بالبحر بجامع العذوبة، وهو معنى يتنافى مع طبيعة البحر التي لا تنطوي على ماء عذب أو زلال كما يقول الزمزمي:

يا أيها البحرُ الذي مـــن شـــطّه فـــاض الـــزُّلالُ العـــذْبُ للـــورّادِ[١٣٥]

وتضعف الصورة التشبيهية عند الزمزمي حين يعمد إلى نوع من المبالغة؛ فلا يكتفي بمشبه به واحد، بل يجعل المشبه متعدداً دون أن يضيف ذلك إلى المعنى أو الصورة أو السياق إضافةً تُذكر، تأمل قوله:

فضلتَ الورى مجداً وفخراً وسؤدداً فلا ريبَ حطّتْ عن عُـــلاك النعـــائمُ
فها أنتَ مهـــديٌّ وهـــادٍ وواثـــقٌ أمينٌ ومـــأمونٌ مطيـــعٌ وواثـــقُ[١٣٦]

وواضح في هذين البيتين أن تعدد المشبه به في الصورة التشبيهية قد جاوز الحد المقبول، فالشاعر اكتفى بحشد ألقاب الخلفاء العباسيين قاصداً دلالتها، ومعه تحولت الصورة إلى مبالغة لا تبدو مستساغة.

وحاول الزمزمي استثمار الاستعارة في بناء صوره كما فعل مع التشبيه، ومعروفٌ أن الاستعارة تعطي الشاعر فرصاً أعمق للتشخيص والتجسيد، بيد أن الزمزمي في استعاراته لم يكن بعيداً عنه في تشبيهاته؛ ذلك أنه لم يوظف الاستعارة بالشكل الذي يضيف جمالاً إلى تجربته، وينمّي صورته، فجاءت كثير من استعاراته مسطّحةً وغير مستساغة، ولا تضيف إلى تجربته الجماليةَ المطلوبة، انظر إلى قوله في مدح المصطفى –صلى الله عليه وسلم-:

ضياءُ إبصارِ أبصارِ الذين مضوا من النبيين في العصر الذي قـــدُما[١٣٧]

تجد أن التجنيس الثقيل والمتكلف أسهم في رداءة الصورة وعدم استساغتها رغم انطوائها على معاني الضوء والإبصار، وهي من المعاني التي يمكن أن تمنح الصورة بعداً أجمل.

وقوله في وصف جسم رسولنا الكريم -وأراه وصفاً حسياً غير لائق أبداً أسهمت الاستعارة في سوئه-:

يريكَ غصناً رطيباً ناعمــاً ترفــاً   من اللّحاء إذا ما شُــقّ مســلولا[١٣٨]

ويبدو أن الارتباط بالمكان، والانتماء إليه، ومحاولة بث الحياة فيه من الملامح الجيدة في قليل من صور الزمزمي؛ ذلك أنه مسكون بالمكان (مكة والبيت الحرام)، وتجيء الصورة في مثل هذه السياقات وسيلةً جيدة لإثارة المتلقي ولفت انتباهه، ولا يكون هذا إلا حينما يوفّق الشاعر في استثمار المكان، وشحنه بالحياة والحركة، وهذا قليل في شعر الزمزمي، لكنه موجود، ومنه قوله:

أعيدا أحاديث الحجــاز وشــنّفا   بها مســمعي يــا صــاحبيَّ وشــرّفا
رعى الله صفواً لم يُشَبْ بتكــدّر   وعيشاً هنيئاً مَرّ حلواً علــى الصــفا
تبارك من بيــت منيــفٍ إلهــه   كساه من التعظــيم ثوبــاً وشــرّفا
ولله وفدٌ قــد أنــاخوا بســوحه   رجالاً ورُكْباً بالضــوامر أوجفــا[١٣٩]

كما أن الزمزمي ينجح -أحياناً- في استثمار الصورة الشعرية، ومزجها بنسيج التجربة، مما يجعل لها قيمة جمالية تزيد من قيمة النص، وظهر ذلك -مثلاً- في مدحته للشريف أبي نمي حين أراد أن يحكي عن نقاوة العِرض النابعة من الطهر والشرف والصفاء الذي يتمتع به الممدوح، فقال:

أعــداؤه دنّســهم لــؤمهم   وعرضــه الأبــيض لم يــدنسِ[١٤٠]

انظر كيف وفّق الشاعر في توظيف اللون رمزاً للمعنى من خلال الصورة الشعرية، فأبرز فكرته بنجاح، وكثّف المعنى بطريقة مثالية؛ ذلك أن البياض يوحي بالنقاء والشرف والعفّة والطهر، فكان التعبير به صورة للممدوح في سياق الحديث عن العدوّ الذي دنّسه لؤمه موفقاً وموحياً.

وقد يُوَفّقُ الزمزمي إلى صور تبدو موحية ومعبرة، وتزيد المعنى عمقاً والصياغةَ جمالاً، ومثل هذه الصور قليلة في شعره -كما أسلفت- لكنها موجودة، ومنها تصويره نفسه مأسوراً بيد الفقر، وباحثاً عن العتق منه، يقول:

فوثقتُ منه بحمله عن كـــاهلي وزراً وهـــتْ مـــن حملـــه أعنـــاقي
وقصيدتي هذي بها استنهضـــته لفكاك أسري مـــن يـــد الإمـــلاقِ[١٤١]

ومن جميل صوره تشبيهه المعقول بالمحسوس، وهو نوع نادر من التشبيه في شعر شعراء القرون المتأخرة، وفيه يعمد الشاعر إلى المعنوي ليشبهه بالحسي، يقول الزمزمي في رثاء الوزير الكجراتي:

أعظمْ بنازلةٍ في الكونِ طـــارَ بهـــا براً وبحـــراً مســـير الســـفن والإبـــل
... أهدت لأهل الحجاز اليأسَ بعد واليأسُ بعدَ الرجا كالظلّ في الأسَلِ[١٤٢]

فقد جسّم الزمزمي في هذا البيت اليأسَ -وهو معنوي- وجعله محسوساً حين شبهه بالظلّ، والظلُّ ماديٌّ محسوس، وهنا تكمن طرافة الصورة، ويظهر سرّ جمالها.

ومنه -أيضاً- قوله في الثناء على خُلُقِ النبي -صلى الله عليه وسلم-:

يزينه خُلُـــقٌ يحكـــي النســـيم إذا أرخى على الروض في أسحاره ذيلا[١٤٣]

فأخلاقه -عليه الصلاة والسلام- تحاكي الهواء العليل في السَّحَر في رقتها ونقاوتها وطيبها، وهي صورة جميلة ومعبّرة وُفّق الزمزمي في رسمها وتشكيلها.

ومن جميل إبداعه نسجه للصور المتوالية المستمدة من البيئة الطبيعية، من مثل قوله في مطلع همزيته المطوّلة التي مدح بها النبي -صلى الله عليه وسلم-:

أثغورٌ منها الصـــباحُ أضـــاءَ أم بـــروقٌ علـــى النقـــا تتـــراءى؟
أم بدورٌ تبلّجـــت أم شمـــوسٌ أشـــرقتْ مـــن ســـنا قبـــاب قبـــاءَ
ما رأتْ قبلها العيون شموســـاً ضوؤها ينفـــع العيـــون جـــلاءَ[١٤٤]

فالصور هنا تفيض نوراً وضوءاً وإشراقاً، وهي تناسب السياق الذي يتحدث فيه، وهو مولد النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي أشرق به النور على البشرية كلها.

- **الإيقاع :**

الإيقاع عنصر أصيل من عناصر الشعر العربي، وثمة علاقة وثيقة جداً بين الإيقاع والتجربة الشعرية؛ ذلك أن "الشعر في صياغته الفنية يتكوّن من عدة تفعيلات تمثّل وحداتٍ موسيقية، تُكسب القصيدة نغماً آسراً مؤثراً، وحين تفقد القصيدة سحر هذا النغم، ينقطع ذلك الخيط الفني الدقيق الذي يشدّ المتلقي إلى سماع الشعر"[١٤٥]، فترتبك التجربة، وتفقد سرّ تدفقها في وعي المتلقي.

والإيقاع في الشعر أشبه بالعماد الذي تستند عليه العناصر الفنية المشكّلة للتجربة الشعرية، ودون هذا العماد يتحوّل البناء الشعري إلى أنقاض لا روح لها، ومن هنا كان الإيقاع نبعاً تجري فيه الموسيقا التي تمثّل في حقيقتها أنساقاً محددة؛ كالوزن والروي، وأخرى غير محددة كجرس المفردات، ونبر بعض الدلالات والصور.

ومن يتأمل في إيقاعيات الزمزمي على مستوى الوزن الشعري، يجد أنه أَكثَرَ من النظم على الأوزان المشهورة كثيرة الاستعمال في الذاكرة الشعرية العربية؛ كالطويل والبسيط والكامل[١٤٦]، والبسيط أكثرها حضوراً في شعره، يليه الكامل، ثم الطويل، وهي أوزان تتسم بالطول وامتداد النَّفَس، وربما كان يحاول أن يلائم وزنه مع غرضه الشعري؛ ذلك أن هذه الأوزان تساعد الشاعر على استيعاب الصفات العديدة التي يسبغها سواء على ذاته أو على ممدوحه[١٤٧]، كما أن بثّ حالات النفس الإنسانية في بعض المواقف يحتاج إلى بحر ذي إيقاع ممتد ومتسع، يتأتى من خلاله نقل التجربة بكامل تفاصيلها، وإظهار الشعور المستكنّ في النفس الشاعرة.

وإضافة إلى الأوزان الثلاثة آنفة الذكر، فقد نَظَمَ الزمزمي بعض تجاربه على أوزان أخرى، كالخفيف، والوافر، والمتقارب، والرمل، وبنسبةٍ أقلّ نَظَمَ على الرجز والسريع والمنسرح، ومعظم تجاربه جاءت على الأوزان التامة، وقليل منها جاء على المجزوءات، كمجزوء الوافر، ومجزوء الرمل، ومخلّع البسيط، وأكثر

مجزوءاته جاءت على شكل نُتَفٍ ومقطوعاتٍ قصيرة، لا تتجاوز –في عددها– أصابع اليد الواحدة، وقد نَظَمَ عليها في مواقف بلغ فيها انفعاله النفسي مبلغاً قاده إلى الترنم بأبيات ذات إيقاع سريع يتطلبه المقام؛ ذلك أن "النظم حين يتم في ساعة الانفعال النفساني، يميل عادةً إلى تخيّر البحور القصيرة، وإلى التقليل من الأبيات"[١٤٨]، ويظهر هذا في مثل قول الزمزمي على مجزوء المتقارب –وقد كان بعيداً في بلاد الروم، وفي طريق عودته استبدّ به المرض والشوق إلى مكة–:

أيـــا صـــاحبيَّ احـــديا ... فقـــد مـــسّ جســـمي العيـــا
أم مـــن دون أم القـــرى ... تريـــــدان أن تَهْنَيـــــا؟[١٤٩]

ومن ذلك –أيضاً– مقطوعة للزمزمي قالها حين كان بعيداً عن مسقط رأسه مكة، فلاقى ركباً اصطحبوا معهم بعض ما يحمل من مكة وبلاد الحجاز عادة، فتهيجت أشجان الزمزمي، واشتعلت أشواقه، وأنشد من مجزوء الوافر:

معـــــاذ الله أن أنســـــى ... فـــروض الحـــب أو سُـــنَنَه
وقلـــبي كـــلّ آونـــةٍ ... يجـــدّدُ ذكرَهـــا حُزُنَـــه
إلى شـــوق لأجيـــادٍ ... أهـــاج مـــن الحشـــا شـــجنَه
ربـــوعٌ هُـــنَّ لي سَـــكَنٌ ... وهـــل ينســـى الفـــتى ســـكنَه؟[١٥٠]

بيد أن اللافت في تجربة الزمزمي الشعرية وجود بعض التجارب المرتبكة في إيقاعها؛ إذ تنتشر فيها الكسور والهنات العروضية، وربما تداخلت بحورها، وبعض أبياتها لا يمكن إصلاح الخلل فيها إلا بتغيير جذري في بعض كلماتها؛ حذفاً أو إضافة أو تقديماً أو تأخيراً، بخاصة حين يقترن الخلل الإيقاعي بأخطاء في اللغة، وأكثر ما يكون هذا في المقطوعات القصيرة، ويبدو أنه كان يرتجلها ارتجالاً، ولا يتنبه إلى الثغرة الإيقاعية التي وقع فيها، أما تجاربه الطويلة فهي منضبطة في إيقاعها غالباً، وليس فيها خلل يذكر، وفي هذا دليل على تعجله وارتجاله للمقطوعات التي تنطوي على خلل إيقاعي كبير، أو انه صاغها على شكل أهزوجة تداخل الفصيح فيها بالعامي، ومن ذلك قوله:

**آل عبـــــد الكـــــبير		يــــا ســــاكنين الشُّـــبيكة**
**قــــد أتـــــاكم أســــير		طـــيره قـــد وقـــع في الشُّـــبيكة**
**أنقـــــــذوا المســـــــتجير		لم يبـــقَ فيــــه مــــن حُريكـــة[١٥١]**

فهذه أبيات لا وزن لها، وفيها خلل إيقاعي ولغوي، وواضح من وعائها الشكلي أنها أشبه بالأهزوجة المنشدة التي يرددها العامة، وشبيه بها قوله:

**يـــا شـــيخ عبـــدالرحمن		هــــل شــــربةٌ للظمــــآن؟**
**تُـــذهب عنـــه الأحـــزان		فقـــــد أتـــــاك ولهـــــان[١٥٢]**

وقد يقع الخلل الإيقاعي في البيت المفرد، فينكسر البيت ويختل إيقاعه العروضي، ويبدو هذا الأمرُ أشبهَ بالظاهرة في شعر شعراء القرن العاشر الهجري، ومنه في شعر الزمزمي قوله:

**ونفاد صبرٍ كنـــتُ قبـــلُ أُســـيغه		واليوم لم يستطع يُسِـــغْه مـــذاقي[١٥٣]**

فالشطر الثاني مكسور بسبب الفعل (يستطع)، ومثله قوله:

**يأمن فيه الــوحشُ والطـــيرُ لمْ		تَضْمُمْ به جناحَها مـــن رَهَـــبِ[١٥٤]**

فالشطر الأول مكسور بسبب مفردة (الطير)، ومثل هذا الخلل الإيقاعي كثير الورود في شعره[١٥٥].

وأما الرويّ، فقد استعمل الزمزمي –كثيراً– الأحرفَ الذُّلل[١٥٦]؛ كالميم والنون والباء واللام أكثر من غيرها، على أن حروف المعجم كلَّها وردتْ روياً في قصائده عدا خمسة أحرف، هي الثاء والشين والصاد والطاء والظاء، وهي قليلة الاستعمال في الشعر العربي بشكل عام، بيد أن الزمزمي ربما استعمل القوافي النّفر[١٥٧]، وكان موفقاً في ذلك في بعض التجارب، كاستعماله الزاي الموصولة بالهاء الساكنة في إحدى مدائحه النبوية:

**قد وصلنا السُّهاد طول الليالي		وقطعنـــا إليـــك عـــرضَ المفـــازة**
**وأتينا إليـــك مـــن خـــير وادٍ		بك قـــد أظهـــر الإلـــه امتيـــازه**

تتبارى بنـــا المطـــيُّ اشـــتياقاً حين يُملي الحِدا عليهـــا ارتجـــازه
كلّما نـــوّه النشـــيد بـــذكرا كَ اعترها مع الحنين اهتـــزازه[١٥٨]

كما أن الزمزمي اعتمد على الرويّ المطلق أكثر من المقيّد، وهو بهذا الصنيع يحاكي سائر الشعراء العرب الذين سبقوه، على أن الرويّ المقيد قد يجيء في شعره على نحوٍ قليل، ومنه قوله:

لله شمسٌ قد جلاهـــا الشـــهاب مشرقةٌ مـــن أُفْـــقِ هـــذا الكتـــابْ
أذهبَ دجْنَ اللـــبس إشـــراقُها وأوضحَ الرشدَ وطُرْقَ الصوابْ[١٥٩]

وحين يتتبع الدارس الروي في كثير من تجارب الزمزمي يلحظ نوعاً من التكلف وعدم التوفيق في كثير من اختياراته؛ ذلك أنه لا يعتني بملاءمته لأفكاره الرئيسة غالباً، فقد يجيء الروي المقيّد في حالات تستدعي البثّ والشكوى التي تتطلب إطلاق العنان لنَفَسه وصوته، واختيار الروي المناسب للتنفيس عن مشاعره، والتقييد في حالات كهذه يحبس النَّفَسَ، ويكتم الصوت، وتزداد المشكلة حين يكون الروي حرفاً شديداً، يمنع الصوت أن يجري فيه[١٦٠]، مما يؤدي إلى قلق القافية، وارتباك التجربة، كقول الزمزمي مناجياً ربَّه –تعالى– ومبتهلاً إليه:

ربّ واجعلنا علـــى العـــادة في عامنـــــا ممـــــن إلى بيتـــــك حـــــج
نحـــن جيرانـــك والجـــار لـــه جانـــبٌ يُرعـــى علـــى أَلْـــفِ عِـــوَج
أنـــت أوصـــيت للجـــار فـــلا تـــنسَ جـــاراً مسّـــه الضُّـــرُّ فَهَـــج
لا تعـــذّبنا ببعـــدٍ عـــن فنـــا حرم يُؤتى لـــه مـــن كـــلّ فـــج[١٦١]

فتوالي الجيم الساكنة في البيت بعد البيت يصك الأذن، ويؤذي السمع، ويُحدث قلقاً لدى المتلقي من جراء تعاقب هذا الصوت المجهور الذي لا تستريح له الأذن في سياق دعاء وابتهال ومناجاة.

وقد يتكلّف الزمزمي قافية لا تضيف إلى المعنى شيئاً يذكر، وإنما يضطر إليها؛ ليغلق البيت بما يناسب الأبيات التي سبقته، ومن ذلك في شعره قوله:

آهِ مما جنيتُ لو كــان يجــدي قولُهــا مــن عظــيم ذنــبٍ ووِزْرِ[١٦٢]

فمفردة (وِزْر) مستدعاة استدعاءً لإتمام البيت وإقامة الوزن فقط؛ ذلك أن المعنى يكتمل بمفردة (ذنب)، وليس ثمة إضافة معنوية في إقحام مرادفه، ومثله قوله:

فَهَا أنت مهما أمَّ بابَك طالــبٌ لأمرٍ يَهُنْ منــه العســير ويســهل[١٦٣]

فالفعل (يسهل) يرادف في معناه الفعل (يهن) ولا يضيف إلى معنى البيت جديداً، سوى أنه اضطر إليه؛ لإغلاق البيت وإتمامه، وهو كثيرٌ جداً في شعره[١٦٤].

وقد يهمل القاعدة النحوية الصحيحة في سبيل صياغة القافية، فيقع في الخطأ اللغوي الصريح من مثل قوله:

هل مات قطٌّ شهيدُ حــب لم بفنــاه في المحبــوب حيــاً بــاقي[١٦٥]

وحقها (باقياً) بالنصب، لكنه أراد الرويّ قافاً مكسورة، ومثله قوله:

والضبُّ والظبيُ والذئبُ اتلُ قصتَهم والشاةُ والحَمَلُ المرحــولُ والفــيلا[١٦٦]

فمفردة (فيلا) حقها الرفع، لكنه نصبها دون مسوّغ نحوي؛ لتتواءم مع روي القصيدة المفتوح.

والضرورات الشعرية لإقامة الوزن كثيرة جداً في شعر الزمزمي، وأكثرها حضوراً تسهيل الهمزة، وحذف نون الفعل دون مسوغ نحوي، ووصل همزة القطع، وقطع همزة الوصل، وقصر الممدود، وبعضها يُعّدّ من الضرورات القبيحة[١٦٧] التي لا يستسيغها الذوق ولا يرتضيها، والضرورات تستشري في شعر الزمزمي وتنتشر في معظم قصائده، وهي دليل ضعفٍ في الصياغة، وفقرٍ في الموهبة، ومن أمثلتها قوله:

وادر عــــني متاعبــــاً وهمومــــاً أوجبــتْ مــن منــازلي تحــويلي[١٦٨]

الفعل في أصله (درأ) لكن الشاعر سهّل الهمزة، ثم عامل الفعل معاملة المنقوص، من أجل أن يقيم الوزن، فهما ضرورتان في مفردة واحدة، ومن ضروراته –أيضاً– حذف نون الفعل دون مسوّغ في قوله مخاطباً ابنته:

إني ليحـــزنني اكتئابـــكِ دائمـــاً ممـــا تلاقـــي مـــن ونىً وألاقـــي[١٦٩]

وحق الفعل أن يكون (تلاقين)، لكنه حذف نون الفعل ليقيم الوزن دون مسوّغ نحوي، فلم يسبقه ناصب أو جازم، ومن ضروراته الشائعة في شعره وصلُ همزة القطع في مثل قوله:

وعائشة سدّدْ أبـــا بكـــر امرهـــا وسهّل وقل يا بنتُ أمـــركِ يعنـــاني

فقد وصل همزة القطع في (أمرها) لضرورة الوزن، فضلاً عن الخطأ اللغوي في القافية، وعكس ذلك قطعه لهمزة الوصل في مثل قوله:

ستُعطى كلّ ما في النفس فـــاكرمْ بمـــا أمّلـــت مـــن تلـــك الفوائـــد[١٧٠]

ومن ضروراته قصر الممدود في مثل قوله:

لقـــد كـــان الفنـــا يقـــوى عليـــه فيمضي العامُ وهو عليه قاعدْ
فـــأبرز في حقائقهـــا كلامـــاً صفتْ للأصفيا منه الموارد[١٧١]

وبالمجمل العام، فقد حافظ الزمزمي على إيقاعية شعره العروضية المعتادة في الذاكرة الشعرية العربية، بيد أن فقر موهبته الشعرية، ووضعف إمكاناته الإبداعية قد ألجأته إلى كثير من الأخطاء اللغوية، والضرورات الشعرية، في رحلة إقامة الوزن، وتدبيج القافية.

- **الخاتمة:**

إنّ الذاكرة الشعرية العربية –على مرّ التاريخ– حافلة بأسماء كثيرة كان لها حضور وصوت شعري بارز، وإن لم تنل حقها من الذكر والضوء في كتب

التراث النقدي، وفي دراسات تاريخ الأدب في العصر الحديث؛ نظراً لتزامن حياتها مع فترة جفّ فيها معين الإبداع، وضعفت الملكة الشعرية بشكل ظاهر.

ويُعَدّ الشاعر عبدالعزيز الزمزمي أنموذجاً لما تقدم؛ فهو من شعراء القرن العاشر الهجري؛ أحد قرون ضعف الشعر العربي، وجفاف القريحة، وتردّي مستوى الإبداع، لكن صوته الشعري كان حاضراً من خلال عدد كبير من التجارب الشعرية المختلفة والمتفاوتة في مستواها الفني، وإن غلب الضعف على أكثرها، كما كانت كثيراً من تجاربه الشعرية أشبه بالوثائق التاريخية والاجتماعية للقرن العاشر الهجري، ولمكة المكرمة وبيت الله الحرام، ومن هنا كان شعره جديراً بالدراسة والإضاءة والفحص والنقد.

لقد حاول هذا البحث أن يستدعي صوت الشاعر عبدالعزيز الزمزمي الشعري عبر ذاكرة القرن العاشر الهجري، مستعرضاً عصره الذي عاش فيه، والبيئة المكية التي نشأ فيها، وساردا سيرته الإنسانية منذ ولد إلى أن مات، مستعيناً في هذا كله بكتب التراجم والتاريخ التي صُنّفت وترجمت لأعلام القرن العاشر.

كما حاول البحث -بعد ذلك- أن يخصَّ شعر الزمزمي بدراسة مفصلة، تناولت أغراض شعره الأكثر وروداً فيما بين أيدينا من شعره، فكانت المدائح النبوية أكثر أغراض شعره حضوراً وتأثيراً؛ إذ مدح الرسول -صلى الله عليه وسلم- بالكثير من القصائد التي اتسمت بالطول، وقد جاوز بعضها ثلاثمئة بيت، وقد كان الزمزمي متأثراً -كما تأثر غيره- بقصائد البوصيري الشهيرة في مدح الرسول الكريم -صلى الله عليه وسلم- تلا ذلك مدحه العلماء والصالحين، والتوسل بهم، وطلب العون والمساعدة منهم، سواء أكانوا أحياءً أم أمواتاً، وقد بدا أثر التصوف ظاهراً في تلك المدائح بشكل واضح وعميق، مما يعكس انتشار مثل هذا الفكر في مكة إبان القرن العاشر الهجري.

ثم جاء شعر الحنين والشوق ثالث موضوعات شعر الزمزمي حضوراً، بيد أنه كان الأجود رؤيةً وصياغةً في تجربة الزمزمي الشعرية؛ إذ كتب تجارب متعددة باح فيها بشوقه وحنينه إلى مكة المكرمة وبيت الله الحرام وبلاد الحجاز بشكل عام، وتميزت تجاربه هذه –غالباً– بعمقٍ نسبي في الرؤية، وصدقٍ بادٍ في العاطفة، وجودةٍ في الصياغة والأسلوب.

وإضافة إلى الأغراض والموضوعات السابقة، فقد حضرت أغراض أخرى في شعر الزمزمي، لكنه كان حضوراً خجولاً لا يمكنه أن نقارنه بما سبق، ومن ذلك شعر الرثاء، والشعر التعليمي، بيد أن الرصيد الشعري لهذه الأغراض كان قليلاً، ولا يستطيع الباحث أن ينطلق من مثل هذه التجارب النادرة ليستصدر حكماً، أو يثبت حقيقة نقدية.

كما حاول البحث أن يقدم رؤية نقدية في منجز الزمزمي الشعري، وقد انطلقت هذه الرؤية من دراسة الرؤى والأفكار في شعره، مروراً بدراسة بناء القصيدة، ولغتها، وصورها، وإيقاعها، منبهةً على أوجه الإحسان والإخفاق عنده، وقد كانت الجوانب السلبية أكثر حضوراً، مما أعطى انطباعاً عاماً بحالةٍ من الضعف استولت على تجربة الزمزمي الشعرية.

وخلص البحث إلى نتائج، منها:

١- كان عبدالعزيز الزمزمي من شعراء مكة وعلمائها إبّان القرن العاشر الهجري، وكان شعره وسطاً بين شعراء عصره، قياساً على مستوى الشعر وقتذاك، وإن كان إلى الضعف أقرب، لكنه قياساً بحجمه وطول بعض قصائده يُعَدّ وثيقة تاريخية واجتماعية مهمة لتلك المرحلة الزمانية والمكانية.

٢- برز الزمزمي بشكل ظاهر في مدائحه النبوية المطوّلة، وفي شعر الشوق والحنين إلى مكة بلاد الحجاز والبقاع المقدسة، واتسم قليلٌ من شعره بالقوة والجزالة وجودة السبك، فيما كان جُلُّ شعره يسير في نسق الضعف

والتكلف، وهو -في الحالين- يعكس النسق العام للشعر في مكة وبلاد الحجاز إبان القرن العاشر الهجري .

٣- لم يحظَ شعراء القرن العاشر الهجري في مكة -والزمزمي على رأسهم- بنقاد متخصصين يتابعون الشعر، ويقوّمون أداء الشعراء، فلم نعثر -والحال هذه- على دراسات أو إشارات نقدية متخصصة، وجُلّ ما كان موجوداً آراء انطباعية واستشهادات عابرة مبثوثة في كتب التراجم والتاريخ.

ولقد كان هذا البحث محاولة متواضعة لسبر أغوار شاعر لم ينل حقه من الدرس والفحص، ولعل هذه الدراسة تكون فاتحة لدراسات أخرى تتناول الشاعر، وتركز على بعض الجوانب البارزة في شعره، وبالأخص مطولاته في مدح النبي -صلى الله عليه وسلم- وهي -تبعاً لطولها وكثرة عددها- تحتاج إلى دراسة مستقلة تسبر غورها، وتجلي خصائصها ورؤاها.

كما يوصي البحث بضرورة التعاطي مع شعراء القرون المتأخرة، وبالأخص القرن العاشر الهجري وما بعده، وفاق رؤية جديدة تحاول الغوص والتوغل في ذاكرة تلك القرون، والكشف عن الأسماء الشعرية الموجودة وقتذاك، وفحص منجزها الشعري فحصاً موضوعياً منصفاً، وتجاوز الرؤية التقليدية النمطية التي وصمت شعر ذلك العصر بالضعف الشديد جملة واحدة دون تمحيص وبحث وقراءة ونقد.

• مسرد المصادر والمراجع:

-**إتحاف الورى بأخبار أم القرى:** النجم عمر بن فهد، تحقيق فهيم شلتوت، مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، بجامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٩٨٤م.

- **إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن:** محمد بن علي الطبري، تحقيق محسن محمد سليم، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، ١٩٩٦م.
- **الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي:** ريتشارد مورتيل، عمادة شؤون المكتبات بجامعة الملك سعود، الرياض، ط١، ١٩٨٥م.
- **أسس النقد الأدبي عند العرب:** أحمد بدوي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ط٣، ١٩٦٤م.
- **بدائع الزهور في وقائع الدهور:** محمد بن إياس، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٨م.
- **البلاغة العربية في ثوبها الجديد:** بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.
- **تاريخ أمراء البلد الحرام عبر عصور الإسلام:** عبد الفتاح رواه، مكتبة المعارف، الطائف، (د.ت).
- **تاريخ أمراء مكة من ٥٨-١٣٤٤هـ:** عارف عبدالغني، دار البشائر، دمشق، ط١، ١٤١٣هـ.
- **تأريخ مكة:** أحمد السباعي، النادي الأدبي الثقافي، مكة المكرمة، ط٧، ١٩٩٤م.
- **الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف:** جار الله بن ظهيرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٨م.
- **حلقات العلم في المسجد الحرام على مر التاريخ:** سعيد الصالحي، دار الطلائع، القاهرة، ط١، ١٩٨٩م.
- **الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي:** خالد الجابري، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، المملكة المتحدة، ط١، ٢٠٠٥م.

- **الحياة العلمية والاجتماعية في مكة في القرنين السابع والثامن الهجريين:** طرفة العبيكان، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ط١، ١٤١٦هـ.
- **خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام:** أحمد زيني دحلان، المطبعة الخيرية، القاهرة، ط١، ١٣٠٥هـ.
- **دراسات ونماذج في مذاهب الشعر ونقده:** محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر، القاهرة. (د.ت).
- **دروس في البلاغة العربية:** سعد حمودة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٩م.
- **ديوان البوصيري:** تحقيق محمد سيد كيلاني، مطبعة مصطفى البابي، القاهرة، ط١، ١٩٥٥م.
- **ديوان عبد العزيز الزمزمي:** تحقيق حسين الصياد، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط١، ٢٠١٣م.
- **سرّ صناعة الإعراب:** ابن جني، تحقيق حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٩٩٣م.
- **سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي:** عبد الملك العصامي، المكتبة السلفية، القاهرة، (د.ت).
- **السنا الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر:** محمد بن أبي بكر الشلي، تحقيق إبراهيم المقحفي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط١، ٢٠٠٤م.
- **سنن ابن ماجة:** إشراف ومراجعة صالح آل الشيخ، دار السلام، الرياض، ط١، ١٩٩٩م.
- **السيرة النبوية:** ابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط٢، ١٩٥٥م.
- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب:** ابن العماد الحنبلي، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ط١، **١٩٩٣م.**
- **شرح الكافية الشافية:** محمد بن مالك، تحقيق عبد المنعم هريدي، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي في جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٩٨٢م.

- **الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري:** عائض الردادي، مطبعة سفير، الرياض، ط٣، ١٤٢٣هـ.
- **شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح:** محمد بن مالك، تحقيق طه محسن، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، ١٤١٣ه.
- **الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث:** بشرى صالح، المركز الثقافي، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.
- **الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري:** علي البطل، دار الأندلس، بيروت، ط٢، ١٩٨١م.
- **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين:** محمد بن أحمد الفاسي، تحقيق محمد الفقي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م.
- **غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام:** عبد العزيز بن عمر بن فهد، تحقيق فهيم شلتوت، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٩٨٩م.
- **فيض الخبير وخلاصة التقرير على نهج التيسير:** علوي بن عباس المالكي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٧م.
- **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون:** حاجي خليفة، مكتبة الإسلامية والجعفري تبريزي، طهران، ط٣، ١٩٦٧م.
- **الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة:** نجم الدين الغزي، تحقيق جبرائيل جبور، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م.
- **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر:** ضياء الدين بن الأثير، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار الرفاعي، الرياض، ط٢، ١٩٨٣م.
- **المختصر من كتاب نشر النور والزهر في ترجمة أفاضل مكة:** عبد الله أبو الخير، تحقيق محمد العامودي وأحمد علي، دار عالم المعرفة، جدة، ط٢، ١٩٨٦م.
- **المرشد إلى فهم أشعار العرب:** عبد الله الطيب، دار الآثار الإسلامية، الكويت، ط٣، ١٤٠٩هـ.
- **معالم الأدب العربي في العصر الحديث:** عمر فروخ، دار العلم اللملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.

- **المعجم المفصل في الأدب:** محمد التونجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م.
- **معجم ما أُلّف عن مكة عبر العصور:** عبد العزيز السنيدي، دار الملك عبدالعزيز، الرياض، ط١، ١٤٢٩هـ.
- **منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم:** علي السنجاري، تحقيق ماجدة زكريا، معهد البحوث العلمية ومركز إحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٩٩٨م.
- **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي:** ابن تغري بردي، تحقيق نبيل عبد العزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م.
- **موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور:** صابر عبد الدايم، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٩٣م.
- **موسيقى الشعر:** إبراهيم أنيس، دار القلم، بيروت. (د.ت).
- **النقد الأدبي الحديث:** محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٩م.
- **النور السافر عن أخبار القرن العاشر:** عبد القادر العيدروس، تحقيق أحمد حالو وآخرين، دار صادر، بيروت، ٢٠٠١م.
- **نيل المنى بذيل بلوغ القرى لتكملة إتحاف الورى:** جار الله بن فهد، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ٢٠٠٠م.
- **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين:** إسماعيل باشا البغدادي، وكالة المعارف، اسطنبول، ط١، ١٩٥١م.

الهوامش والإحالات :

١ من ذلك اقتتال الشريف بركات بن حسن بن عجلان مع أخيه علي، والخلاف الذي نشب بين الشريف أبي القاسم بن حسن بن عجلان وابنه زاهر، وهجوم الشريف هزاع بن محمد بن بركات على أخيه بركات، وغير ذلك من الحروب والخلافات التي كان سببها الرئيس التنافس على الحكم.

للاستزادة انظر: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي: ٣٤٣/٣ وما بعدها، ابن تغري بردي، تحقيق نبيل عبدالعزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م، وبدائع الزهور في وقائع الدهور: ٣٣١/٢، محمد بن إياس، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٨م، وغاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام: ٤٩٤/٢-٤٩٥، عبدالعزيز بن عمر بن فهد، تحقيق فهيم شلتوت، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٩٨٩م، وسمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي: ٢٨٢/٤-٢٨٣، عبدالملك العصامي، المكتبة السلفية، القاهرة، (د.ت).

٢ انظر: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين: ٨٦/٤، محمد بن أحمد الفاسي، تحقيق محمد الفقي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م، والجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف: ص٣١٨-٣٢١، جار الله بن ظهيرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٨م.

٣ انظر: الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي: ص٣ و ص١٥١، ريتشارد مورتيل، عمادة شؤون المكتبات بجامعة الملك سعود، الرياض، ط١، ١٩٨٥م.

٤ انظر: غاية المرام: ٥٢٠/٢ — ٥٤٢، عبدالعزيز بن فهد.

٥ انظر: تاريخ أمراء مكة من ٥٨-١٣٤٤هـ: ص٦٦٥، عارف عبدالغني، دار البشائر، دمشق، ط١، ١٤١٣هـ.

٦ انظر: غاية المرام: ٨٣/٣، عبدالعزيز بن فهد.

٧ انظر: سمط النجوم العوالي: ٢٨٩/٤، عبدالملك العصامي.

٨ انظر: تأريخ مكة: ٢٧٣/١، أحمد السباعي، النادي الأدبي الثقافي، مكة المكرمة، ط٧، ١٩٩٤م.

٩ انظر: منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم: ٢٢٥/٣، علي السنجاري، تحقيق ماجدة زكريا، معهد البحوث العلمية ومركز إحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٩٩٨م، وخلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام: ص٥٠، أحمد زيني دحلان، المطبعة الخيرية، القاهرة، ط١، ١٣٠٥هـ، وبدائع الزهور: ١٩٠/٥، محمد بن إياس.

١٠ انظر: منائح الكرم: ٢٣٩/٣ وما بعدها، السنجاري، وسمط النجوم: ٢٩٣/٤، عبدالملك العصامي، وخلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام: ص٥٠ وما بعدها، أحمد زيني دحلان.

١١ انظر: منائح الكرم: ٣٦٣/٣، السنجاري، وتأريخ مكة: ٣٤٨/٢، أحمد السباعي، وتاريخ أمراء البلد الحرام عبر عصور الإسلام: ص٢١٧-٢١٨، عبدالفتاح رواه، مكتبة المعارف، الطائف، (د.ت).

١٢ انظر: تأريخ مكة: ٣٤٦/٢ وما بعدها، أحمد السباعي.

[١٣] انظر: الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة: ١٧٠/٢، نجم الدين الغزي، تحقيق جبرائيل جبور، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م، والمختصر من كتاب نشر النور والزهر في ترجمة أفاضل مكة: ٢٥٨، عبدالله أبو الخير، تحقيق محمد العامودي وأحمد علي، دار عالم المعرفة، جدة، ط٢، ١٩٨٦م.

[١٤] السنا الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر: ص٥٢٠، محمد بن أبي بكر الشلي، تحقيق إبراهيم المقحفي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط١، ٢٠٠٤م.

[١٥] ديوان عبدالعزيز الزمزمي: ص٢٤٤، تحقيق حسين الصياد، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط١، ٢٠١٣م.

[١٦] انظر: المصدر السابق: ص٢٢٩، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٣٩، وغيرها.

[١٧] انظر: فيض الخبير وخلاصة التقرير على نهج التيسير: ص٤، علوي بن عباس المالكي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٧م.

١٨ النور السافر عن أخبار القرن العاشر: ص٤٢٨، عبدالقادر العيدروس، تحقيق أحمد حالو وآخرين، دار صادر، بيروت، ٢٠٠١م.

١٩ شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ٥٥٨/١٠، ابن العماد الحنبلي، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٩٩٣م.

٢٠ السنا الباهر: ص٥٢٠، محمد الشلي.

٢١ المختصر من كتاب نشر النور والزهر: ٢٥٨، عبدالله أبو الخير.

٢٢ المرجع السابق: ص٤٣٥.

٢٣ انظر: السنا الباهر: ص٦٣٩، محمد الشلي.

٢٤ انظر: المختصر من كتاب نشر النور والزهر: ٣٣٨، عبدالله أبو الخير.

٢٥ انظر: المرجع السابق: ص٤٧.

٢٦ انظر: الكواكب السائرة: ١٧٠/٢، نجم الدين الغزي.

٢٧ انظر: المختصر من كتاب نشر النور والزهر: ٢٥٨، عبدالله أبو الخير، ومعالم الأدب العربي في العصر الحديث: ٤٣٣/١، عمر فروخ، دار العلم اللملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.

٢٨ انظر في ترجمته: النور السافر: ص٥٣٤، العيدروس.

٢٩ المرجع السابق: ص٤٢٨.

٣٠ انظر: السنا الباهر: ص٥٢٠-٥٢١، محمد الشلي.

٣١ المرجع السابق: ص٥٢٢.

٣٢ انظر: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: ١٢٣٤/٢، حاجي خليفة، مكتبة الإسلامية والجعفري تبريزي، طهران، ط٣، ١٩٦٧م.

٣٣ انظر: هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين: ٥٨٤/١، إسماعيل باشا البغدادي، وكالة المعارف، اسطنبول، ط١، ١٩٥١م.

٣٤ نصّ على هذا التاريخ (٩٧٦هـ) العيدروس في النور السافر: ص٤٢٧، وابن العماد الجنبلي في شذرات الذهب: ٥٥٨/١٠، ونجم الدين الغزي في الكواكب السائرة: ١٧٠/٢، ومحمد الشلي في السنا الباهر: ص٥٢٠، وعبدالله أبو الخير في مختصر نشر النور والزهر: ص٢٥٨-٢٥٩.

٣٥ مختصر نشر النور والزهر: ص٢٥٩، عبدالله أبو الخير.

[٣٦] انظر: إتحاف الورى بأخبار أم القرى: ٦٣٤/٣، النجم عمر بن فهد، تحقيق فهيم شلتوت، مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، بجامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٩٨٤م.

[٣٧] انظر: العقد الثمين: ٣٨٨/٣-٣٨٩، محمد الفاسي، وسمط النجوم: ٦٨/٤، عبدالملك العصامي، وإتحاف الورى: ٥٢١/٣، النجم عمر بن فهد.

[٣٨] انظر: الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي: ص١٢٣، خالد الجابري، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، المملكة المتحدة، ط١، ٢٠٠٥م.

[٣٩] ذكر الغزي في الكواكب السائرة أن هناك من جاوز خمسين سنة مجاوراً في المسجد الحرام. انظر: الكواكب السائرة: ٢١٧/١، نجم الدين الغزي.

[٤٠] انظر: الحياة العلمية والاجتماعية في مكة في القرنين السابع والثامن الهجريين: ص٢٤٢، طرفة العبيكان، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ط١، ١٤١٦هـ.

[٤١] انظر: إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن: ٣٦٢/١، محمد بن علي الطبري، تحقيق محسن محمد سليم، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، ١٩٩٦م.

[٤٢] حلقات العلم في المسجد الحرام على مر التاريخ: ص١٤٧، سعيد الصالحي، دار الطلائع، القاهرة، ط١، ١٩٨٩م.

[٤٣] للاستزادة، راجع: معجم ما أُلّف عن مكة عبر العصور، عبدالعزيز السنيدي، دار الملك عبدالعزيز، الرياض، ط١، ١٤٢٩هـ.

٤٤ انظر: سمط النجوم:٣٧٢/٤، عبدالملك العصامي، والشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري: ١٧٥/١، عائض الردادي، مطبعة سفير، الرياض، ط٣، ١٤٢٣هـ.

٤٥ انظر: ديوان عبدالعزيز الزمزمي: ص١٢ وما بعدها، وقد اقتنيت النسخ الثلاث من مظانها؛ تمهيداً لتحقيق الديوان، لكني -بعد ذلك- علمت أن المحقق حسين الصياد قد تصدى لها، وحقق الديوان.

٤٦ ديوان عبدالعزيز الزمزمي: ص٤.

٤٧ كانت وفاته مقتولاً سنة ٩٦١هـ. (انظر في ترجمته: نيل المنى بذيل بلوغ القرى لتكملة إتحاف الورى: ص٦٠٢، جار الله بن فهد، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ٢٠٠٠م، والنور السافر: ص٣٢٥، العيدروس).

٤٨ النور السافر: ص٣٢٦، العيدروس.

٤٩ كانت وفاته سنة ٩٦٢هـ. (انظر في ترجمته: شذرات الذهب: ٤٧٩/١٠، ابن العماد الحنبلي، والنور السافر: ص٣٤١، العيدروس).

٥٠ النور السافر: ص٣٤١، العيدروس.

٥١ كانت وفاته سنة ٩٩٢ه. (انظر في ترجمته: منائح الكرم: ٣٧٢/٣ ومابعدها، السنجاري، وإتحاف فضلاء الزمن: ٥٥٩/١، محمد الطبري).

٥٢ كانت وفاته سنة ٩٦١ه. (انظر في ترجمته: شذرات الذهب: ٤٧٥/١٠، ابن العماد الحنبلي، والنور السافر: ص٣٣٩، العيدروس).

٥٣ انظر: سمط النجوم العوالي: ٣٣٨/٤-٣٤١، وقد وهم العصامي حين نسب القصيدة إلى الشاعر عبدالعزيز بن محمد الزمزمي، والصواب أنها لعبدالعزيز بن علي الزمزمي؛ ذلك أن هذه القصيدة في مدح الشريف أبي نمي، وتمنئته بزواج ابنه الشريف أحمد المتوفى سنة ٩٦١هـ، أي قبل وفاة عبدالعزيز بن علي الزمزمي بنحوٍ من خمس عشرة سنة، بينما الشاعر عبدالعزيز بن محمد الزمزمي مولود في سنة ٩٧٥هـ. (انظر في ترجمته: مختصر نشر النور والزهر: ص٢٥٩).

٥٤ ديوان عبدالعزيز الزمزمي: ص٣٢.

٥٥ المصدر السابق نفسه.

٥٦ المصدر السابق نفسه.

٥٧ المصدر السابق نفسه.

٥٨ مطلع الأولى:

كيفَ ترقَى رقيّكَ الأنبياءُ ** يا سماءً ما طاولتْهَا سَماءُ

ومطلع الثانية:

أمن تذكّرِ جيرانٍ بذي سَلمٍ ** مَزَجتَ دَمْعاً جَرَى من مُقلةٍ بدم

(راجع: ديوان البوصيري: ص١و ص١٩٠، تحقيق محمد سيد كيلاني، مطبعة مصطفى البابي، القاهرة، ط١، ١٩٥٥م).

٥٩ أشار الزمزمي إشارة لطيفة إلى تغييره حركة الروي بقوله:

فـــاز بـــالرفع مُفْلـــقٌ لـــك وشّـــى (كيـــف ترقـــى) وأفحـــم الشـــعراءَ

وبخفـــض الجنـــان جـــوزي منشـــي (ذَكَـــرَ الملتقـــى) جـــزاء وفـــاءَ

بعـــد هـــذا وذاك جئـــتُ أخـــيراً فلهـــذا نظمـــي علـــى الفـــتح جـــاءَ

(انظر: ديوان عبدالعزيز الزمزمي: ص٤٩)

٦٠ ديوان عبدالعزيز الزمزمي: ص٣٣.

٦١ المصدر السابق: ص٩٤.

٦٢ انظر: المصدر السابق: ص٢٤٥.

٦٣ المصدر السابق: ص٤٠.

٦٤ المصدر السابق: ص١٠٣-١٠٤.

٦٥ المصدر السابق: ص٨٩.

٦٦ انظر: السيرة النبوية: ٢٣٤/١، ابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط٢، ١٩٥٥م.

٦٧ ديوان عبدالعزيز الزمزمي: ص٣٧.

٦٨ المصدر السابق: ص٥٧.

٦٩ المصدر السابق: ص٥٧

٧٠ المصدر السابق: ص١٥٥.

٧١ المصدر السابق: ص٩٧.

٧٢ معالم الأدب العربي في العصر الحديث: ٤٣٣/١، عمر فروخ.

٧٣ دروس في البلاغة العربية: ص٣٢٩، سعد حمودة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٩م. وقد ذهب بعضهم إلى أن البديعيات قصائد على بحر البسيط، وقافية الميم المكسورة، (أي معارضة

لميمية البوصيري) وكل بيت منها فيه محسن بديعي أو أكثر. (راجع: البلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم البديع): ١٢/٣، بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٧م).

٧٤ ديوان عبدالعزيز الزمزمي: ص١٧٣.

٧٥ المصدر السابق: ص ٢١٢-٢١٣.

٧٦ المصدر السابق: ص٢١٦.

٧٧ سمط النجوم العوالي: ٣٤٠/٤-٣٤١.

٧٨ ديوان عبدالعزيز الزمزمي: ص١٨٥.

٧٩ المصدر السابق: ص٢٢٤.

٨٠ المصدر السابق: ص٢٣١-٢٣٢.

٨١ المصدر السابق: ص٢٣٣.

٨٢ المصدر السابق: ص٢٣٤.

٨٣ المصدر السابق: ص٢٣٤-٢٣٥.

٨٤ المصدر السابق: ص٢٣٥-٢٣٦.

٨٥ المعجم المفصل في الأدب: ٥٥٣/٢، محمد التونجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م.

٨٦ النور السافر: ص٣٢٦-٣٢٧، العيدروس.

٨٧ حَذَفَ نون الرفع دون مسوغ؛ فلم يسبق الفعل بناصب ولا جازم، وهي ضرورة شائعة في المنثور والمنظوم. (راجع: شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح: ص٢٢٨-٢٣٠، محمد بن مالك، تحقيق طه محسن، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، ١٤١٣ه).

٨٨ النور السافر: ص٣٤١، العيدروس.

٨٩ مرّ في عرضي للديوان حديث عن ذلك، وذكرت أن مرثية الوزير الكجراتي بلغت (٨٧) بيتاً، ومرثية الجبرتي بلغت (٥١) بيتاً.

٩٠ سنن ابن ماجة: ١٤٦/١، إشراف ومراجعة صالح آل الشيخ، دار السلام، الرياض، ط١، ١٩٩٩م.

٩١ ديوان عبدالعزيز الزمزمي: ص٢٤٢-٢٤٣.

٩٢ سنن ابن ماجة: ١٤٦/١.

٩٣ ديوان عبدالعزيز الزمزمي: ص٢٤٣-٢٤٤.

٩٤ المصدر السابق: ص١٨٠.

٩٥ المصدر السابق: ص١٦٤.

٩٦ المصدر السابق: ص٢٣٤.

٩٧ المصدر السابق: ص٢١٣.

٩٨ المصدر السابق: ص٥٥.

٩٩ المصدر السابق: ص٤٠.

١٠٠ المصدر السابق: ص٥٨.

١٠١ المصدر السابق: ص٥٥. وللمزيد من اقتباساته القرآنية، انظر الصفحات: ٣١، ٤٨، ٩٦، ٩٩، ١٤٣، ١٥٨، ١٩٧، وغيرها.

١٠٢ انظر: أسس النقد الأدبي عند العرب: ص٤٧٣، أحمد بدوي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ط٣، ١٩٦٤م.

١٠٣ ديوان عبدالعزيز الزمزمي: ص١٦٤-١٦٥. وتُلحظ الضرورة في قافية البيت الأخير، والصواب: وأدّه.

١٠٤ المصدر السابق: ص١٩٤.

١٠٥ المصدر السابق: ١٩٥، ومنه -أيضاً-: ص ١٢٣، ١٦٥، ٢٣٨، ٢٥١، ٢٧٩.

١٠٦ المصدر السابق: ص٣٣.

١٠٧ انظر: سمط النجوم العوالي: ٣٣٨/٤، العصامي.

١٠٨ ديوان عبدالعزيز الزمزمي: ص٦٩.

١٠٩ المصدر السابق: ص١٨٣.

١١٠ المصدر السابق: ص٢٣٤.

١١١ المصدر السابق: ٢٢٤.

١١٢ المصدر السابق: ص١٣٥.

١١٣ المصدر السابق: ص١٣٩.

١١٤ النور السافر: ص٣٣٠، العيدروس. وقوله (انقضى) في تأريخ الجمّل يوافق تاريخ وفاة الوزير الكجراتي سنة ٩٦١ه.

١١٥ النقد الأدبي الحديث: ص٣٧٣، محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٩م.

١١٦ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ٢٧٥/١، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار الرفاعي، الرياض، ط٢، ١٩٨٣م.

١١٧ ديوان عبدالعزيز الزمزمي: ص١٩٥.

١١٨ المصدر السابق: ص٢٠٢.

١١٩ المصدر السابق: ص١٣٦-١٣٧.

١٢٠ المصدر السابق: ص١٩٤.

١٢١ المصدر السابق: ص٧٩.

١٢٢ المصدر السابق: ص٢٣١.

١٢٣ المصدر السابق: ص٢٠٣.

١٢٤ المصدر السابق: ص١٤٣.

١٢٥ المصدر السابق: ص٢٣٤.

١٢٦ المصدر السابق: ص٢٣٥-٢٣٦.

١٢٧ المصدر السابق: ص٢٣٢.

١٢٨ ورد البيتان ضمن ترجمة الزمزمي في النور السافر: ص٤٣٢، العيدروس، وفي شذرات الذهب: ٥٥٨/١٠، ابن العماد.

١٢٩ الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري: ص٣١، علي البطل، دار الأندلس، بيروت، ط٢، ١٩٨١م.

١٣٠ انظر: الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث: ص٢٠، بشرى صالح، المركز الثقافي، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.

١٣١ دراسات ونماذج في مذاهب الشعر ونقده: ص٦٠، محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر، القاهرة. (د.ت).

١٣٢ ديوان عبدالعزيز الزمزمي: ص٧٧.

١٣٣ المصدر السابق: ص١٧٣.

١٣٤ النور السافر: ص٣٢٦، العيدروس.

١٣٥ ديوان عبدالعزيز الزمزمي: ص١٧٨.
١٣٦ المصدر السابق: ص١٩٤.
١٣٧ المصدر السابق: ص٩٦.
١٣٨ المصدر السابق: ص١٣٢.
١٣٩ المصدر السابق: ص٢٣٥-٢٣٦.
١٤٠ سمط النجوم العوالي: ٣٤٠/٤، العصامي.
١٤١ ديوان عبدالعزيز الزمزمي: ص١٦٠.
١٤٢ النور السافر: ص٣٢، العيدروس.
١٤٣ ديوان عبدالعزيز الزمزمي: ص١٣٢.
١٤٤ المصدر السابق: ص٣٣.
١٤٥ موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور: ص١٦، صابر عبدالدايم، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٩٣م.
١٤٦ انظر: موسيقى الشعر: ص٢١٠، إبراهيم أنيس، دار القلم، بيروت. (د.ت). وقد نظم الزمزمي ما نسبته ٦٤,٦% من شعره على هذه البحور الثلاثة، وأكثرها عنده البسيط، ثم الكامل، ثم الطويل.
١٤٧ انظر: المرشد إلى فهم أشعار العرب: ٣١٨/١، ٤٤٣، ٥٠٧، ٥٠٨، عبدالله الطيب، دار الآثار الإسلامية، الكويت، ط٣، ١٤٠٩هـ.
١٤٨ موسيقى الشعر: ص١٩٧، إبراهيم أنيس.
١٤٩ ديوان عبدالعزيز الزمزمي: ص١٣٩-١٤٠.
١٥٠ المصدر السابق: ص٢٣٣.
١٥١ المصدر السابق: ص١٦٦.
١٥٢ المصدر السابق: ص١٧١.
١٥٣ المصدر السابق: ص١٦٠.
١٥٤ المصدر السابق: ص٢٣٧.
١٥٥ انظر: المصدر السابق: ص ٣٦، ٤٧، ١٢٣، ٨٤، ٩٦، ١١٨، ١٦٩، ٢١٤، وغيرها.
١٥٦ انظر: المرشد إلى فهم أشعار العرب: ٥٨/١، عبدالله الطيب.
١٥٧ انظر: المرجع السابق: ٥٨/١.
١٥٨ ديوان عبدالعزيز الزمزمي: ص٧٢.
١٥٩ المصدر السابق: ص٢٢٣.

١٦٠ انظر: سرّ صناعة الإعراب: ٦١/١، ابن جني، تحقيق حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٩٩٣م.

١٦١ ديوان عبدالعزيز الزمزمي: ص٥٩.

١٦٢ المصدر السابق: ص٧١.

١٦٣ المصدر السابق: ص٨٧.

١٦٤ انظر –على سبيل المثال لا الحصر– المصدر السابق: ص٣٤، ٥٧، ٦٩، ٩١، ١١١، ١٣٤، ١٤٨، وغيرها.

١٦٥ المصدر السابق: ص١٥٩.

١٦٦ المصدر السابق: ص١٣٣.

١٦٧ انظر: شرح الكافية الشافية: ٨٦٥/٢، محمد بن مالك، تحقيق عبدالمنعم هريدي، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي في جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٩٨٢م.

١٦٨ ديوان عبدالعزيز الزمزمي: ص١٧٤.

١٦٩ المصدر السابق: ص١٥٨.

١٧٠ المصدر السابق: ص١٨٥.

١٧١ المصدر السابق: ص١٨٦.